عبد السلام صالح

صُرَّةُ المُر

رواية

الفارابي

عبد السلام صالح

صُــرَّةُ المُــرّ

روايــة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

"والقلبُ كما تلهثُ في صيد
المجانين غزالة"

مظفر النواب

منتديات الكوكب العاشر

وصل أول

لا أزالُ أذكرُ وجههُ الذي يشعُّ بالبِشْرِ، لا أزالُ أذكرهُ واجبهُ على الرغم من كل ما حدث..

كنت أحضِّر له وجبة الغداء وأحملها إلى دكانٍ بيع القماش الذي لم يعد يشتريه أحد في الفترة الأخيرة، وظلّ يصرّ على الذهاب إليه، يفتحهُ ويبقى هناك من الصباح وحتى المغيب.

كنتُ أحضِّرُ له غداءهُ، فيبتسمُ لي كما دوماً، لم يعد يحملني كما كان يفعل عندما كنتُ طفلةً صغيرة، فقد صرتُ صبيةً في الخامسة عشرة من عمرها، ومنذ أن تفتّح (زهرٌ كثيرٌ) صار كل شيءٍ مربكاً، اختلفتُ أنا وصرتُ أرتبك، ثم انتبهت أنني لم أكن وحدي من صار يرتبك، ارتبكوا جميعاً، حتى هو صار يرتبك، وبات ارتباكهُ واضحاً، صارت نظراته إلي تتحوّر وتتحول إلى شيء لم أكن أفهمه في البداية، ثم صرتُ أؤوِلُهُ كما شاءت طفولاتي، إلى أن رَجّحت أيائلُ رغباتي الشقية، وصرتُ أنتبهُ أكثر، وألتفت اليه فجأةً، لأجدهُ ساهماً، مسروقاً، أو ساكناً هو ونظرهُ وكلُّهُ إلى تفصيلةٍ

أهملتها من لباسي أو جسدي، صرتُ أنتبه إلى أنه ينظر إلي بشكلٍ غريب، ولم يكن بروحي أي ارتيابٍ بشيء، إنما استمرار وتواصل نظراته. لقد أجبرني على الانتباه، على الرغم من أني حاولتُ مراراً أن أهملها، حتى صارت تتعلقُ بي وترافقني. فبعد أن أخرج من دكانه وأذهب، تظل تلك النظرات ترافقني، أطردها لتعود، لأطردها، إلى أن فقد قدرتهُ على ضبط نفسه بعد أن اكتملت أنوثتي، وتكوّرت أشيائي كأجمل تكورٍ نافرٍ ومستفز، وكنتُ أهملها، لم أكن أخجل منها لأخبئها، ولم اكن أتباهى بها لأبرزها، إنما هي الأشياء تتكوّنُ وتنفرُ وحدها، وصرتُ أضحك.. هل من المعقول، هل من الممكن.

ومع تكرار ذهابي وإيابي اليه، صارت الأمور تتضح أكثر، صارت أكثر من واضحة، حتى صارت ضحكتي التي كنت أكتمها لتنتظرني على زاوية دكانه تماماً، ما أن آخذ خطوتي الأولى في الغياب عن نظره، أضحك وأمشي بسرعة، أضحك ولا أدري لماذا، أضحك وأدري. . .

لذاك الوقت، كنت أرى وأضحك، إلى أن صار يضع بعض الأواني والأدرات على يمينه في عمق الدكان، حيث يجلسُ هو في وسطه على كرسيه خلف الطاولة، ويطلبُ إليّ أن آخذها معي إلى البيت، كي اضطر للمرور في الممر الضيق بينهُ وبين الطاولة؛ كنتُ أمرّ وأدير له ظهري، انحشر وأمرُّ على مهلٍ، أمرّ بأناةٍ، حريصةً على أن لا يرتطم جسدي

بأشيائه التي يضعها على الطاولة. كان جسمي من الخلف يمرُ تماماً أمامه، كان يَبِسُّ ويُمَس، كان يجسُّ ويجسّ. ثم صار يرسمُ الأشياء ويوزع الأثاث، ويلقي بأشياء على الأرض بجانبه أو تحت كرسيه الذي يعيده إلى الخلفِ قليلاً كي ينثني جسدي عندما ألتقطهُ له وأعيده، خصوصاً عندما تكون فتحةُ الصدر عندي أوسع قليلاً، وتظهر أكثر عند انثنائي لالتقاط أشيائه الصغيرة... كان يدعُ في قسري على الإتيان بحركاتٍ تظهرُ مفاتن جسدي... ولغاية الآن كنت أضحك وأحبه، بل كنت أفهم عليه واستجيب له استجابةً نموذجية... ماذا ساخسرُ إن استطعتُ إسعاده، ثم صار يفتعلُ احتكاكاً سريعاً بي، كأن يضعُ راحتهُ أو راحتيه على إليتيّ عندما أمرُّ محشورةً بينه وبين الطاولة، ويسحب جسده إلى الخلف كي أمرّ. كان يمسُّ جسدي سريعاً، بخوف،بارتباك، برجفة، بترددٍ، بوجلٍ، قليلاً، ثم صار يطيلُ ثوانيه تلك، ثواني احتكاكه أو مسّه غير المقصود، ثم صار المسُّ جسّاً سريعاً، ثم صارت تصاحبُ جسّهُ حركةٌ، كأنه يتحسسُ سريعاً، ثم علا جنوناً ما، فصار يضغطُ الأشياء براحتيه... صار يعبثُ... إلى أن صار يعاركني مازحاً كي يطال، يفتعلُ مشكلةً ويعاقبني بطريقته الخاصةِ من ضربٍ خفيفٍ إلى قرصٍ أو فرك جزء ما يستفزّهُ من جسدي... وهنا عاد ارتباكي إليّ، لم أعد مرتاحةً لحراكي معه، صرتُ مرتبكةً ولم أعد أضحك فقط، صرتُ أضحك وأبكي في طريق عودتي إلى البيت، واحترت، ماذا

أفعل؟ هل أواصلُ تماشيَ معه، هل أواصلُ انسياقي... هل ثمة ما أخسره.

لم يكن يستشيرني، كان يرتبُ أشياء متعته وتفاصيلها بدقةٍ واحتراف، كان دوماً يبادرُ ويفاجئني بوضعٍ جديد، بشيءٍ جديد...

جسدي بيت التواطُؤات، منجمها، منه الابتداء وإليه المنتهى...

لذا صرتُ أتواطأ معي ومع الجميع بكل أشيائهم، تواطأتُ وسكتُّ عن كثير من الأشياء التي صارت تحدث معي منذها، وأنا للآن لم أبح بأي شيء حدث بيني وبينه بعد ليلة الصيف تلك، والبيتُ خالٍ إلا مني ومنه، لأنَّ كل ما حدث ليلتها، وما بعدها، لم يكن إلا حلم ليلة صيفٍ لرجلٍ يغادرُ العمر متجهاً نحو الانتهاء؛ ربما يكون هذا الحلم قد تواصل بعدها ليلاً أو نهاراً، نوماً أو يقظة، إنما شيءٌ فيّ، في جسدي قرر أن يتواطأ معه، شيءٌ داخلي لم يكن يستطيع منعه من أن يفعل بجسدي ما يشاء، تناقضٌ حاد كان يصطرعُ في داخلي، وقوى جذبٍ بألف اتجاه تحاول سحبي لموقفٍ، لفعلٍ، لرأيٍ، إنما ظللتُ ساكنةً حين كانت يداهُ تجوسان كل مسامٍ في جسدي، وكنتُ أفتعلُ النوم حيناً وأقيمُ في إغفاءاتي تلك، وهو يذرفُ كل رغباتِهِ وشهواته على جسدي. لقد كان يعرفُ أنني فقط أغمضُ عينيَّ ولستُ نائمةً؛ ربما يكون هذا هو ما شجعه على الاستمرار والإيغال، ربما شعر أنني كنتُ

استمتع بيديه وأصابعه تجوسُ الإثارةَ الكامنة في جسدي وتشعلُ فيّ كل جنون، ربما لمح طرفَ ابتسامةٍ رضى مرسومةٍ على أطرافِ غفوتي، ربما شكّل ارتخاء جسدي أو انفراجُهُ لديه وجسده، ربما طَرقُ تقلبي التي كانت لأي شيءٍ سوى إبعاده أو طلب التوقف عن الفعل. . . .

جسدانِ محرّمانِ يفعلان الفحش مُغمِضين منهما كلّ العيون، وجينات الجنون تقود التيه والعبث والاصابع، بِمَسّها اللذيذ تقترب أكثر لتغطي العري وتمد يدها نحو ملابسي الداخلية، تغطيني لتنزع ملابسي عني وتجوس هناك في الأنهار، ينلمسُ الشفا لأصير أخرى غيري تنادي النفي فيّ، ذاك النفي الذي أُلقيتُ في جُبّهِ ورُميتُ به منذُ تكور نهداي، وتكور كل شيءٍ في جسدي، رُميتُ وحدي هناك، ولم ينتبه إليّ أحد، كلهم كانوا يزيحون النظر عني، ولم يكلمني أحدٌ عنه، حتى صار هو لعبتي التي أعابثها فترسلني لإثارةٍ أجملُ من أي شيء في الوجود؛ متعة لا مثيل لها، موتٌ جميلٌ وخدرٌ لذيذ، جنانٌ مطلقةٌ وأحاسيس فذةٌ ولذاذاتٍ وذرى قمم، وقمم عوالمَ كانت ترسلني إليها يداي وأنا أعبثُ وحيدةً في جسدي. . . فبماذا سأشعرُ عندما يُزالُ عني تعبُ الفعلِ والركضُ وراء المتعةِ، عندما لا يكون مطلوباً مني سوى أن أستلقي وأغمض عينيّ، ويفعلُ آخرُ بي أكثر مما كنتُ أفعل، يوصلني لأكثر مما كنت أصل، يوصلني ويقطّعني بألف قطعٍ ووصلٍ ووصول، ويَصلُ أشياءهُ بي، كل أشيائهِ الموصلات،

لأكتشف أن كل الذرى التي كنتُ أتوهمها ذرى، ليست إلا عتباتٍ صغيرةً، ما أن يعتليني حتى أراها، حتى يوصلني لها وبها . . .

كان عبثي بي هو الموت، فصار عبثهُ يرسلني لما بعد الموت، لما فوق القمم، لذا كنتُ أفتعلُ النوم، كنتُ أنامُ راضيةً أو بجسدٍ راضٍ، ولم يكن شعور الذنبِ يمرُّ إلا لماماً، كان يمرُّ بخاطري مرور السحاب.

منتديات الكوكب العاشر

وصل ثانٍ

منذُ سقطتُ من رحمها، وحتى سقوطي الأخير في رحم الأرض الأنثى. . . وأنا أهوي فاغراً عمري.. أتساقطُ هاوياً.. دون أن أصل إلى قرار. . .

عمرٌ من الفراغ المطلق وأنا في كلٍ لحظة على وشك الارتطام. .

هاوياً إلى غير قاع ومرعوباً للحد الأقصى من الرعب.. إلا في ثوانيّ تلك، حين تبسطُ امرأةٌ ما راحتيها لتوقف هاويتي فيتعلقُ كلّي بها بلا أملٍ، إنما.. تتعلقُ روحي بها.

ربما.. هو أملٌ قدريٌ مبهم، غير مستوعب، وغير مدرَك، إنما.. تتعلقُ روحي.

وبِمُطلَقها شُغلتُ، إذ كلما حَمَت براحتيها سقوطي القدري هنيهةً، يلتفتُ قلبي المرهف لشكل صوتها، لوجهها، فيرى جزءاً من مطلقها الموزعِ بين نساءِ الأرض. . .

هذا بعضٌ منها. . .

رقّة الوجود. . . بعضها الموزع بين النساء.

الأنوثةُ والعمر. . . أي طغيان حادٍ. . . جارح وقاتل.

عمرٌ لهُ شهوةُ الإقامةِ في التفاصيل الأنثويةِ، رغبةُ التمرغِ في ثنايا مُدهِشها، قاب بُعدها، وبعدَ قربها الحبيب والقريب من القلب، وثار تفاصيلها، توقُها وتوقُهُ لها.

ليس هو مجرد شكل، ولا حتى هو مضمون... ربما تعاركَ شكلٌ مع مضمونهِ، ربما المضمون يحاول خلق شكل جديد، يستطيع التمدد بين أحضانه.

هذا المعنى الوقح، الجريء، المدان، الوسخ النظيف، يحاولُ أن يكون لذيذاً.

أساسُ القولِ بؤسهُ

معنى لا يلمهُ اتساع الأرض ولا يحويهِ مكان...

وحنينٌ أول لأول روح، لمطلقها، لأصلها، لحقيقتها.

في الطريق إلى بهاء الجسد العالي، في الطريق لعيشهِ، لمسّ مسامه الروحي والحقيقي نضيعهُ، تأخذنا الصور والمشاهد والخيال العليل بها، فلا نرى حلاً وإحلالاً إلا الوصول، لا نعود نريد سوى لمس الجسد الحبيب، نريد رغبةً غامضةً فينا ولا نشعر منها أو فيها إلا بالجسد.

لا أحد يريدك مثلي... و يشتهيكِ كما أشتهي... جسداً وناي... لا أحد يريدُ أن يستمع لموسيقى المسام سواي... وأحار لشقوتي، بشهوتي كيف لي بعد كل هذا العمر ألا أكونَ عنيفاً، كيف لا أقدُّ كل القميص من قبلٍ ومن دبر... أهمُّ وأهمهم... وأفحُ فحيح الغزالةِ في انثناءات كسلها الشتائي اللذيذ... من سيقنعني أنني لمستك إن لم

أدخلُ داخل المسام وأنام... إن لم يغطّ كل جروح العمر زغبُ البياض الحليبي الذي نسيتِه على أطراف المساحات المهملةِ هناك... كيف لي أن أجسَّ صدرك دون أن أرى ابتسامته الطفولية المماحكة لرغبةٍ ما، نراها تطل مختبئةً ما بين رمانتَي كتفي وعنقي، تطل وتدور للجهة الأخرى مداريةً ومراودةً بنفس الشهوة؛ رحيق آخر حُلمها بدمعةٍ ذرفتها على أول ما مس الفم... أول ما ناغت شفاه... أول من منح الحياة.

كيف لنا أن نَلمَّنا معاً، نحضننا، دون أن نشعر بالمطلقين فينا.. دون أن أشعر بأنك مطلقُ المرأة، كلها، بكل تفاصيلها، بكل تاريخها، بكل عطشها وجموحها، رقتها ودقتها وجنونها، لا بد إنَّ فيك من كل امرأةٍ شيئاً أخفوه ويخفونه الآن ويحاولون حشرك في جسد، لا بدّ فيك شيءٌ من كل ما حدث لكل امرأةٍ عبر التاريخ، فيك شيءٌ من كل شيء، المطلق فيك ويريدون أن يغيبوه...

وأنا الغبي الذي لا يريد إلا أن يراه... لا يمكنهُ أن يكون... إلا به... دون سواه.

أولُ تَبرعمٍ للروحِ رعشةُ امرأةٌ لا أعرفها، كل ما أذكر منها أنها امرأةٌ جميلة، أذكرُ أنني نبتُّ فجأةً في قحالةٍ حادة، أذكر أن عمري كان من المفترض أو من الممكن أن يكون زمنَ هُنيهةٍ أتنفسها، زمن إطلالةٍ صغيرة، أفردُ فيها جسدي وأطرافي ثم اضمحلُّ وأنتهي وأموت... لكن ثمة امرأة،

صبية صغيرة، فوجئت بي مصادفةً فرعت روحي، جمعتني ولملمتني ونفضت عني كل غبار الأرض، حنَّتْ وانحنت بتحنانها الرحيم على كل مسامِ جسدي، أزالت عن شفتي الناشفتين كل الرمال، نظفت ما بين أصابعي، لعقت بلسانها تبرعمات شراييني ونبهت ما نام منها، أيقظت دمي على جريانه الكسول بدءاً، ثم حرضته على الذهاب والإياب والعودة، حتى عرف طريقه المملّ في جسدي وأحبَّ رتابة طرقه القصيرة، صار يغذّ الخطى لأطرافي علهُ يلامسُ أطراف شفتيها، أو حلاوةَ لسانها حين تلثم وجه مسامة في جسدي.

نبهتهُ على متعٍ ما، ألقٍ ما، لذةٍ ما زال يحارُ في فهمها، وكأنها منحةُ الحياة.

تلك المرأةُ... غابت منذ قرون، لكن روحي ما زالت تتعلقُ بكل ما يشير أو يشي بشيءٍ له علاقةٌ بتلك المرأةِ أو بمتعلقاتها.

...ونشأتُ ذكراً... حاولت الأشياء أن تُؤنِسَني، حاولت وتحالفتُ معها، لكن شفاه تلك المرأةِ، نارها ولسانها، ما زالا هما السبب الأول والحقيقي للوجود.

وهي التي ما زالت تحرسني من الإساءةِ لها.. لمطلقها ومتعلقاتها، هي التي جعلتني أحب، وتحميني من أن أسيء.

هي التي لم تسأل نفسها من أنا، هي التي ذات صدفةٍ، حَنت، نست، وتناست وانسابت عليّ برعايتها، هي التي كونت رغبتي بالكون... والكون إن جردتهُ امرأة.

يلتاثُ رأسي بصورتها.. بصهيلها المكبوت... بانفلاتات عينيها حين تخفي لتخفي، يلتاث رأسي بصراخِ صمتها حين يريد عقلنة الجنون الجارح والحاد في روحها، حين تضطر أن تكون عادية ومتوقعة.. يلتاث رأسي حين تصير..

يلتاث دمي بشهوتها.. ويعتقٍ معتقٍ وقديم..

مؤخراً صار يلتاثُ رأسي بصورتها.. صرتُ أراها.. أو أنها التي أراها الآن.. أو..

فأصبحتُ موجعاً بالأنوثةِ..

ويربكني أن الجمال يمسّ الروح، يضيءُ مبهماً ما فيها، يشعله، يثير إثارته. الجمال يمسّ ما لا ندركه في الروح، لذا نرتبك... تتحركُ كثيرٌ من الأشياء نحو الجمال، أما الجزء المتناغم، الجزء الجديد والذي أحس ورأى، الأصل الذي اشتعل، مُسّ وأحسَ فيبقى مربكاً ومبهماً؛ لذا يتشوّه الجمال، ولا نصله، ولا نحافظ على الإحساس به.

جمال امرأةٍ يمسُّ.. لكن ما يتحرك نحو هذا الجمال نوعٌ من الشهوةِ، يُفقد المرأةَ بعضاً من ذاك الجمال الأول الذي حرك ذاك الجزء المبهم والمتناغم والجديد.. وبعضٌ منا يفقدُ في الطريق، أثناء مسير خروجه ولا أدري أين، ثمة أصلٌ فينا يشوّه عندما يخرج، ثمة جمال تفقده أشياؤنا عندما تخرج منا، ثمة مطلق يستدعي مطلقاً، يستجرّهُ، وثمة استعداد، ثمة شيء يشبه الاكتمال أو الأصل هو الذي يبدأ الأشياء أو

يحركها من عالي ألقها من اكتمال ما، ما خلق إلا له، ثمة أصل لمشروعية وجود الأشياء منها تبدأ، لكنها تنساهُ سريعاً وتلتهي بشيء آخر يشوهها، فمطلق وجودها رهافةٌ تهفُّ أو تهبُّ مع نسمات الوجود، مطلقها رقةٌ، لكن ثمة ما يشوه، ثمة من يشوه... لو تتأملون كيف تنسربُ أشياؤها إلى القلب، كيف تدخل كلها إلى القلب كيف تحتله، وتلغي كل شيءٍ سواها، كيف يصير مساحةً للهوها وعبثها وتعابثها في كل شيء، حتى بنا، لو تتوقفون قليلاً عند انسراقكم منكم، كيف تصبحون مستلبين وبرغبة، بحب، بلا أي اعتراض بل بسعادةٍ غبية تدرك غباءها، لكنها لا تستطيع أن توقفه، كل هذا القبول، كيف نفسره، كيف نقبله كقدر مطلق ولا نحاول حتى الاعتراض عليه، إذ ثمة آخر دائماً هو من يفيقنا علينا ويخرجنا منا كي ننتبه أو نعترض، نخرج قليلاً منا، نرى حالنا فنستاء منا ونتماشى مع الآخر. إنه لا يجوز ويفترض، ونتخذ آلاف القرارات التي تتبخر بمجرد أن تهب رياحُ حضورها، أو نسمع جرسَ صوتها بمجرد أن تبتسم، تلتغي كل القرارات، كل الوعي... كأنا وحدنا نعود لأصل ما فينا، لطبعٍ،لطبيعةٍ... لكن ما هي طبيعتها هي، ما هو الاصل فيها.

الأنوثة... غموض روح الرجولة...

والرجولةُ قَسرٌ للإنسانيةِ، قتلٌ للطفولة بإغرائها بلعبِ دورٍ مبهمٍ وقاسٍ.

الرجولةُ بساطةُ الوضوح، التي تسير خلف كل ما يحدثُ على السطح، كل الصواب الموزع لاستهلاك الظاهر.

وهم الأهميةِ، عناوين اليومي، الخطوط العريضةِ لكل شيء، ارتداء مستمر لشكل القوة، الإقامة الدائمة في الظاهر، التحقق الكامل والامتلاء بالبسيط وبوهم القوة.

والرجولةُ محضُ الجفاف، والعطش المطلق للحنان، خشونة الشكل، والعمى عن التفاصيل، تنطعٌ مستعجلٌ، إنجازٌ عبثيٌ، رعبٌ وجودي وكلي، فإما أن تكون رجلاً أو لا تكون، انسياقٌ بلا وعي للعب دور لا يُطلب.

محضُ واهمٍ يسابق نفسه للوصول لآخر الكذبةِ التي لا تكشف أمام أحدٍ.

فراغٌ قادرٌ على استيعاب كل ما يُلقى فيه.

والرجولةُ مفهوم يُستحضر في أوقات معينة لتمرير حماقةٍ ما تواجه بمعارضةٍ إنسانية.

والرجولةُ صحراءٌ من العطش والاحتياج، وذراعان يلمان أطراف الكون توقاً لأصغر برعم وهمٍ قد يفضي للأنوثة، خَلقٌ متعطشٌ يبتلعُ كل شيءٍ ولا يرتوي.

فقدٌ مطلقٌ، شكلٌ يبحثُ عن روحه التي ضاعت، وهو يعرفُ أنها اختبأت في مكانٍ ما من الأنوثة، لذا فما زالت كل أشيائه تهفو اليها، وهي وحدها، دون جبابرة الارض جميعاً، تقوده أنى شاءت، بلا جهد منها، شيءٌ بداخله ينقاد ويقوده بسلام غريب وبلا أدنى اعتراضٍ خلفها.

هل يتماهى ذاك الشيء الذي يقوده مع شيء من الأنوثة عندما يقترب منها، أم أن روحه التي ضاعت واختبأت في الأنوثةِ تجعلهُ يرقُّ كلما اقترب منها، من مخبئها، من بيتها.

***

من أين يأتي هذا الحنين لنوع مبهم من الحب ومن العشق ومن الطفولة؟

من أين يأتي احتياجنا وافتقادنا لأمومة ما؟ لطريقة شبه أمومية في العشق؟ لبعض الأمومة الملتبسة في الحب؟ نوع من حنو الأنوثة.. من الرقة.. نوع من مطلق الحب.. نوع من الحقيقة؟

أي تيه تكشفه الأيام.. أي فراغ ترميني الأشياء إليه.. أي فقد.

الأشياء من حولك ليست لك.. ويزداد تعلقكَ الطفولي بالأشياء.. التي تزداد بعداً أو تزدان بعداً..

وتغالي أنت في بحثك المحموم عن حقيقةٍ للأشياء.. والأشياء هي الأشياء.. هي ما يمشي إلى غير كينونته، هي ما يشتاقُ غيره، هي ما يتحول لأشياء لا ترى إلا بحراكها.. باختلافها.. بتغيرها، وأنت القابض على عمر الولدنة، كل شيء يكبر حولك.. فيك.. ويتغير.. إلا ذاك الطفل الغبي الصغير المُصر على امتلاكه لأشيائه ولأفكاره.. لطريقته في العشق.

تَوَلَّدَنَ عمراً.. فظلت طفولته طاغية، فشبّ وشاب، وعمى وهوى، خَلا واستحلى، ذاق وتفتحت كل براعم روحه، مع كل مسة للريح، مع كل ريح كان له تفتحه المؤلم.. كأنه ألم التفتح والوعي..

وما زال الحنين ذات الحنين، ما زال الفقد والعيش والأشياء تتحرق.. تتزوّق.. تتزين.. تَفْسُدُ حَوله.

منتديات الكوكب العاشر

وصل ثالث

وكالذنبِ أردتُ أن أكون، أمرّ على الأشياء مَرَّ السحاب، وكما مَرَّ العمرُ،كنتُ أمررني من كل شيء، كان العمر هو أكثر ما يشبهني أنا والسحاب...

كذا كان مروري ولم أجدني الآن إلا هنا... ها أنا معه هذا المجنون، أحاورهُ، ويحاورني، يوقظني عليّ، ويفتحُ لي باب الريح كي أطير، ويقول " دافعتُ عما كان لي ويفرُّ مني حين توقظهُ يداي "... فهل كنتُ له، هل يقصدني أنا أم أحداً آخر غيري، هل ما زلتُ له إذا كنتُ انا المقصود..

هل كنتُ لي سابقاً... ثم هل ما زلتُ لي...

كان مروري سريعاً بين صفوف الدراسة الثانوية، حتى أنني أكاد لا أذكرُ منها شيئاً؛ ارتبكت قدماي قليلاً على بوابة جامعة اليرموك الرئيسية، ثم واصلت طيرانها في ما يسميهِ هو الآن، التيه.. هل حقاً كنتُ تائهة، عندما أخذني شيءٌ ما فيّ إلى أن أسجل مادة مقدمة في النحت والرسم، وأخذني ذلك الشيء إلى مرسم الكلية الذي صرتُ أقضي كل وقت فراغي فيه، فيما يشبه اللعب... لم يقتنع أحد من كل الذين رأوا

لوحاتي ومنحوتاتي الصغيرة أنني كنتُ ألعب، لم أكن غير طفلةٍ صغيرةٍ تلهو بألوانها وأشكالها كيفما اتفق..

وحين فاجأني الدكتور العراقي الذي كان يدرّسني ذات المادة، وهو واقفٌ خلفي، يراقبُ ألواني وخطوطي، يراقبُ كل ما كنتُ أفعل، ضحكتُ عندما، قال: داخلكِ فنان، فنان حقيقي..

وبدأ يوجّهني ويحاول أن يعلمني تقنياتٍ كنتُ أستجيب له في إظهار محاولاتي لإتقانها، على الرغم من أن داخلي كان يضحكُ منه ويضحكُ عليه، فأنا من لا تستخدم التقنيات، أنا ألعب، وألعب فقط، ألعب بالأشكال والألوان والرغبات، ثم صار يقدّر الأوقات التي أكون فيها في المرسم، ويكون هناك، ربما أخذته ابتسامتي التي أعرفُ عذوبتها، ربما نظرات الإعجاب التي كنتُ ألقيها عليه كلما قدم لي فكرةً أو حساً جميلاً، فقد كان فناناً حقيقياً، ولم تكن بي رغبةٌ بأن أكون مثله، كنتُ فقط أريدُ أن ألعب..

كان خمسينياً ومتزوجاً وله ابنتان في مثل عمري. خطر لي وهو ينظر إلي بطريقةٍ مختلفة، يسرقُ النظر إلى جسدي ويجسه - وإن كنتُ أشعرُ بنوعٍ من الإهانة كلما تركني شخصٌ وانسرقَ إلى جسدي أو بدأ يسرقُ منه، هكذا كنتُ أشعر - إنما خطر لي، لماذا لا أحبه؟ ليس حباً إنما هو شيء قريب من ذلك، فما هو الحب أصلاً، لا أحد يعرف، المهم

شعرتُ بقليلٍ من شيء يشبه الحب ولا أستطيعُ تحديده، ولا أدري أيُّنا بدأ بإغواء الآخر، من منا أشرع شهوتهُ أولاً، من منا اختار أن يبدأ الهجوم بأن تفضحهُ عيناه - أليس هذا ما تفعلونه جميعاً - من منا صار يرمي نظرةُ إلى مناطق ما من جسد الآخر، من صار يركز نظرةُ على فَم الآخر على عينيه...

كان يشتهيني، ولم يكن يرسلني لشيء، كنتُ أحب أن يُحبني ويشتهيني، لم يكن عندي من مانعٍ أو رادعٍ لأي شيء، ولم تكن رغبةً، كانت نوع من الرغبةِ القادمةِ من الملل، كانت رغبتي في الكون أن أجرب كل شيء، وبطريقتي..

وكان دوماً يحدثني عن لوحةٍ ما، كان رسمها في مدينةٍ أخرى، وعن معارض له في مدنٍ بعيده، عن تجاربه ومشاعره ونسائه، وعن المدارس الفنية والفكرية، وعن اللوحات العالمية وقصة كل لوحة، وسِيَر الفنانين العظام، ودوماً كان يختم بأن هذه الأعمال أو صوراً عنها، أو الكتب موجودةٌ في مرسمه في البيت، وعرفت إلى ما يرمي، فأهملت، إلى أن سافرت زوجتهُ وبناته، في ذات يوم سفرهم طلبتُ منه أن يأخذني إلى بيتهِ، إلى مرسمه كي أراه... وكذا كان..

دخلتُ بيته الذي ينتمي لبيوت الطبقة الوسطى، لم يكن يهمني البيت، كنتُ أريد المرسم، دخلت المرسم الذي هو أكبر من غرفةٍ وأصغر من صالةٍ، كان مرسمهُ مثلَهُ، ليس

فوضوياً ولا مرتباً، بهِ من الترتيب وبهِ من الفوضى، بهِ من الجنون، وبهِ من التعقل..

جلسنا.. أحضر مشروبهُ وتوقع أن أرتبك، سكب كأسين، قدم لي الأولى، تناولتها ووضعتها أمامي، أخذ الأخرى وبدأ يشرب، ويتحدث... يقول أشياء ويرحل لعوالم الفكر والفن والتحرر والجسد، يتحدث عن الخلق الأول والخلق الإبداعي، عن الاساطير ويحللها على هواه، ويمنتصف حديثِهِ قمت، نزعتُ ثيابي عني وجلستُ مقابلهُ....

- ارسُمني..

- فاجأتني..

- بماذا؟

- لأنك تريدين أن أرسمكِ هكذا... عارية.

- أنت الذي تريد ذلك، وهي رغبتك وقد أوصلتها لي مراراً، وأنا لا مانع لدي، أنا أريد ذلك أيضاً، ألا تريد؟

- نعم أريد، ولكن فاجأتني.

- هيا.. إبدأ الن تفعل.

- ليس الآن.

وبدأ يقترب مني، تناولتُ ملابسي وبدأتُ بارتدائها.

- لا، انتظري.

وقفت ممسكةً بنصف الملابس التي لم أرتديها بعد، نظرتُ إليه وتعمدتُ ألا أقول شيئاً.

- أريد أن أرسمكِ الآن.
- كما أنا الآن أم تفضلني عارية.
- كما تحبين أنت.
- أنت الذي سيرسم وليس أنا، إفعل ما تشاء.
ولم يفعل ولم يرسم، أقام في ارتباكه، فقلتُ له:
- لو كانت هذه رغبتك الحقيقية لفعلت، أنت تريد ان تنام معي ولا تريد أن ترسمني، ولو تركتني لك لرسمتني بشكلٍ غبي، لرسمتني مستعجلاً النوم معي الذي عوّدت نفسك أن يأتي بعد مرحلة الرسم، الكون عندك مراحل لا يمكنك الوصول إلى مرحلة دون المرور بالمرحلةِ التي تسبقها، انا ليس عندي مانع بأي شيء.

اقتربتُ منه.. زاد ارتباكهُ، أحببتُ ذاك الارتباك، كانت تتنازعني رغبتان وقتها، رغبةٌ أن أنام معه، ومتعة ارتباكه، ورغبتي أن أزيد ذاك الارتباك، وكلاهما مرتبطٌ عندي باللهوِ واللعب، فقلتُ له :

- أنت لا تستوعب الفجاجة، أعرفُ أنك تريد الحالتين، تريد أن ترسمني عاريةً وتريد أن تنام معي أو تحبني كما تحبُ أن تقول، ولكنك تحتاج للمقدمات، وأنا لا أطيق المقدمات، أنا أحب الذهاب إلى الأشياء مباشرةً، بدون مقدمات، بدون كذب، كلكم يريد أن يكذب على نفسه، وأنا لا أحب أن أكذب على نفسي، ولا أحب ان يكذب عليّ أحد، يجب أن أغادر.

- انتظري.
- يجب أن أذهب.
- لماذا؟
- هكذا بدون سبب.

وبدأتُ خطاي نحو الباب، لحق بي بما يشبه التوسل.

- انتظري.

ثم بدأ تسوّله وتوسلهُ الأجمل.

- أرجوكِ إبقيْ قليلاً.

نظرتُ إليه نظرة اللبوة التي أخبئُها في داخلي، وأخرجها متى ما أردت، قلت :

- ممكن أظل.. لكن بدون كذب.
- حسناً، بدون كذب.

عُدتُ، جلست، وشعرتُ أن فرحاً بهِ بدأ يتهلل، وبدأ يعد نفسه بشيء، بدأت سيناريوهاته الغبية تمُدُّ خيوطها وذيولها نحوي ونحو المكان، اعترضتُ عليها وقلت:

- عدنا للمقدمات وللكذب... حسناً أنا التي سنقود.
- موافق.. قودي أنت.

أزلتُ جميع الأشياء عن الطاولة التي أمامنا، نقلتُ المشروب والأدوات الزجاجية، نحّيتها جانباً، ورميتُ كل الكتب والأدوات والاسكتشات والفراشي والألوان ومشاريع اللوحات عن الطاولة، نزعتُ ملابسي واستلقيتُ عليها عاريةً تماماً وقلت:

- أرسم على جسدي ما تشاء. . . أرسم رغباتك، شهواتك كلها، لكن باللون، ثم سأدعُكَ تحققها كما تشاء، أو فارسمني أنا على جسدي، أو فارسمك أنت كما تراك. . . او فارسم بدون شروط، إرسم ما تشاء.

ولم يكن مجنوناً بما يكفي وقتها، لم أكن بعدُ قد أوصلته إلى الجنون الذي أريد. . .

حاول وارتبك، تردد وتلعثم، وعاد فحاول فارتبك، قمتُ بعد أن عجز هو عن رسمِ أي شيء، قمتُ، اقتربتُ من علب الألوان، فتحتها جميعاً ودلقتها على الطاولة فوق بعضها ومزجتها بسرعة وفوضى، عريتُهُ وبدأتُ الحفر بالنارِ على الخشب، بدأتُ العبُ به وبجسده، باللون والشكل والحجم والكتلة والفراغ، بدأتُ أداعبُ مساحاتِ جسده، أحاولُ إرواء شعر صدره، إرواء عطش أي نتوءٍ بارزٍ يشتهي في جسده أي جسد، أقمتُ عند الأنفِ بدقةٍ وأناةٍ، ولعبتُ بتفاحتهِ حتى كَرَّ وكركر وكاد يختنق، فنمتُ في جوف الترقوةِ حتى داعبتني رمانةُ الكتف ودعتني بنعومات الغواية، لبيّتها وصعدتها، ومرغتُ بها كل مسامٍ من جسدي، وألقيتُ بشهوتي من علياء نعوماتها، فسقطتُ منها نحو التيه فما تلقاني غير قوة الفخذين تضُكُني وتمسكني قبل السقوط، نظرتُ فوقي وصعدتُ إلى منتهاه، كنتهُ وكانني، وكنتهُ وكانني، ثم كنتهُ وكانني فارتوى وما رواني، فارتميتُ عند البطنِ قليلاً حتى هدأ تقطعُ أنفاسي، فقلبتُهُ، مستقبلةً ظهرهُ وإليتيه، ظهرهُ وإليتيه، تلك

المساحة الهائلة والممتدة... هي سُكناي، هي ما أحب ان أقيم عندها، تلك المساحةُ تشعرني أنها مُستقري، ألقيتُني كلي هناك وغفوت قليلاً في آخر علياء الإليتين، تماماً في التجويف أو في مُلتقى الظهرِ مع أول الإليتين، في ذاك الوادي نمت... فأنا أصلاً كنتُ هناك أقيم وقتها.

منتديات الكوكب العاشر

وصل رابع

كيف انسابت روحي أمامها؟ هل كنت بهذا القدر من الهشاشةِ دون أن أدري؟ هل كانت بهذا القدر من جمال الروح، فتوافقنا وانسابت روحي لروحها، أم هل صرت بهذا الضعف. . . .

كيف تعلقتُ بها إلى هذا الحد، هل من حواري الغبي معنا على ثملٍ؟ أم من التماع صمتها الممزوج بما أعرف ولا أعرف، وصدى غبائي حين كان يُعلي جمال الروح فيها فيستجيب الجسد، ويعلو الوجه ويأخذني معه لما وراء الفتنةِ.

وروحي كل الوقت فتنةٌ لها، روحي مفتونةٌ أصلاً وخلقاً، مفتونةٌ ومفتنةٌ بالتفاصيل، تفاصيل الوجه والأسرار.

وعلى تحبِ أغزل روحي هماً بوهم.

كيف صار لها كل هذا البهاء.

ألا يدخلن عليّ أحد.. اتركوني لي فإني خالقٌ لروحي أصل جحيمها.

صُمتُ زمناً عن البكاء... وكان لعينيها أول همي، حين ألتاث كل شيءٍ برأسي واستعادت روحي رياح العدم، أوان ربكتها ورغبتها بالدمع الذي لا يستجيب.

آهٍ يا روحي المتعبة... كيف تُحيلين كل شيءٍ لهيباً، حين تُصرين على رفعهِ للألق، أين تختبئ لي الأشياء فلا أراها إلا حين تظهر... ألم أكن أعرف: أليس من المفترض أنني أعرف، كيف ألعب بالأشياء، أزينها، أُنمّقُ أرواحها الصغيرةَ، أنظمُ عقد مباهجها، أرتبُ الوجد فيها، أثير الرياح تجسُ تبرعمات الرغبةِ فيها، لتحيلني رماداً ينثرني جنوني كيفما اتفق.

هي.. تلك المرأة التي وجدتني على شفا الجفاف المطلق.. ومنحت دمي حرية جريانه وعوده الأبدي.. منحتني الحياة.

مطلق المرأة.. كلّيتها.. ربة التفاصيل.

أصل الأنوثة.. كلّها الذي توزّع بين جميع نساء الأرض.

كل الكلام منها ابتدأ.. وإليها يؤوب..

كلما ارتبك القلب بوصفه.. كلما أنار.. منها ابتدأ.. أول الوعي هي، آخره.. ومبتداه.

تفاصيل وثارها، غناها، إصرارها على العناصر الأكثر توتراً...

بدايات رعاية لهفتي عليها ورعايتي.. حبها لي هو ما أعاد إليّ إيماني بي.. أعادني إليّ.

وعنها أبحث ربما في أسرار الأنوثة الآن.. فيها يرتبك الروائي، إليها يحنّ وإليها يؤوب.

ما زال جرس الحروف يرن في قيعان القلب..

ما زال دلالها العالي يلثغ راقصاً على أطراف الشفاه..

ما زالت تتراقص مزيّنة ببهاء الرغبة والوجه.

وجهك.. البلد، وجهك الأبدي.. مشغول بحرير القدرة الفذّة والفقد، بصفاء ونقاء خلقٍ أول.

ووجهك نائماً.. على يدكِ اليسرى على الطاولة..

ساهماً ومأخوذاً برغبةٍ عنيفة تلح لتأخذه كيفما اتفق...

لقد أتعبته الأشياء، أتعبته كل قوانين المنع وتحرقهُ الآن نار القرب، إذ كلما اقترب صوتي أو وجهي منك، يهذي شيءٌ فيك، وتدوخ أشياء، فلا يعود رأسك يحتمل وتلقين به على يدكِ اليسرى على الطاولة وتنامين لترى أنك خارج كل منعٍ وأنك تستحقين الحياة.

تأخذك الرغبات بعيداً بعيداً.. ولا تتحقق، تحاول.. تحاول.. ثم تعود لتحتل ذاك الوجه.. تعود إليه ليعبّر عنها، بعد أن ضاع الكلام.

وحين يعثر جمال الحروف ودلالها، رقتها وضعفها،

داخت، وضاعت بعيداً، ليحضر وجه لا تلوّنه غير فوضى الرغبات المبهمة.

شيء.. شيء يشي به وجهها.

عبثٌ قابع في الركن القصي من ذاك الوجه حين يشف، أشعر بأن المطلقين قد التقيا به وتعاركت به وعليه كل قوى الرغبات المتناقضة، فيبوح بلا قول بسر أسرار التقديس، ويشي بكل التفاتةٍ، بكل خيال المجون... بذات اللحظة...

ها أني أراه الآن أمامي، أواجههُ وأتأمل فيه... شيء مما كنت أبحث عنه في الأنوثة، يقابلني، أراه ولا أستطيع الحديث عنه، فأرتبك، وأرتكب كل الحماقات، ولا أستطيع التعامل معه.

تلك الرهافة والشفافية والرقة القاتلة، كل تلك الفتنةُ في الوجه، كل ما تثيره النعومات ورقة التفاصيل، كل فرح العيون الساحرة التي تنقل لك كل الفرح حين تبسُم، وأنت لا تعرف لماذا، فرحها يغمرك.

هل هذا هو مطلق الجمال، الذي يربكنا فيندفع لاوعينا لاختزاله والتعامل معه فقط كجسد، أم أن رياح الفتنة والرغبة حين تهب لا تدع مجالاً لشيء سوى اللهاث لتحقيق رغبتها التي لا تنتهي.

كيف يختصرُ وجهٌ كل الجسد، كأنهُ أخذ من كل شيء

فتنتهُ، وجلس على عرشِهِ، مختصراً كل الأنوثةِ برقتِهِ، كل الرغائب برغبتِهِ، كل المحرماتِ بحُرمته... كيف لي أن أمس ذاك الوجه حين يكون محضَ رغبةٍ، هو جنسٌ مطلق، فعل جنسي مكتمل، كيف لي أن أغامر.. كيف لي أن أتركها على هواها.

طفولةٌ وجهٍ رُكِّبَ على جسدٍ طفوليٍ لروحٍ طفلةٍ.

ووجهها مطلقٌ، أطلقَ في وجهي وصار يهاجمني، كيفما وليتُ وجهي، مذ رأيته حاولتُ أن أهرب منه، أن أتشاغل عنه بأي شيء، فصار يطاردني ويطلبني، يدعوني لقهوة صبحٍ في باريس(*)، ويشرّعني لكل السهام، حتى تهتك صبري.

وجهها... وروحه... هل وجدت سكناها هناك... هل استقرت في قيمان الأنوثة واستراحت إلى الأبد... وفرضت عليه أن يُضيع العمر في بحثه عنها ولا يجدها.

والأنوثةُ أغنية العمر، والانثناء موسيقى، والحركةُ لحن.

لم يكن ممكناً إلا أن يأتي يومك، لم يكن لألق الطفولة ذاك إلا أن يحرّك الطفل الساكن في قاع القلب، إذ كيف لطفولةٍ أن تنادي طفلها ولا يبوح...

صادقين كالأطفال كنا، غادرين ببوحنا، كل منا غدر

(*) مقهى ومكتبة باريس - جبل اللويبده - عمان.

نفسه أول ما غدر.. كيف كبرنا بلحظتين، ويحنا، كيف قلنا، من ركّب ذاك الكلام على شفاهنا لنبوح بما أوهمونا أنه يعبر عن دواخلنا. . . كيف قلنا إننا نريدُ كالكبار، كيف قبلت روحنا أن تخدع، كيف قبلت أن تكبر، كيف توهمنا أننا نتحدث عن أنفسنا، حين كنا وحدنا وما من كبيرٍ بيننا. .

من أوجد هذا القول ومن خلق هذا الكلام، خلقهُ ليخطفنا منا، ليسرقنا كي نصير مثله، أو على هواه. كيف خُدعنا بالكلام؟ على الرغم من أنه خُلِقَ من لعثماتنا الأولى، من ربكتنا، من لثغ الحروف ودلالها على شفتينا، أوليس الكلام نحن خالقوه، ألم نكن أصلهُ، ربكرهُ، ومعناه، ألم يكن المعنى المبهم والذي ما زال مبهماً هو من أخرج تلك الحروف، لعثمها، ورتبها لتصير كلمةً، جملةً نعبر فيها عن فكرةٍ تراوغنا ولا نقولها. .

ضعنا في مراوغة الكلام، ضيّعونا وضيّعنا الكلام، ما كان أجملنا بلا قولٍ. . . طفلين، عصفورين عاشقين، بلا جسد ولا كلام، لم يكن جسدانا قد كبرا بعدُ كي يُخيفانا، لم يكن كلامنا قد كبر.

ما تزالين طفلةً. . . وأنا الذي تهتُ في عبث الكلام.

ما كان لي والرواية، ما كان لي وللروائي. . . لِمَ لم أتركهُ مرتاحاً ومتمدداً بين أحضان نساء أنوثته .. لِمَ أحضرتهُ

كي يشاركنا قهوتنا وجلستنا "وقراءات نرم العصافير" بقلبينا آخر الليل.

كان أن أثملتني الخمر... فضحكت... ربما نادت مماحكةٌ ما طفولتي... ربما عنادكِ الطفل... ربما رغبتي الطفلة في إرباكك..

كم تبدين جميلةً عندما ترتبكين... كم تطفّلين.. كم تأسرين.

لُهاثٌ هذا الذي يخرجُ منا على شكل سلوك، لُهاثٌ هي الأفكار، وتعب كل هذه الكلمات.

لهاثٌ وقتنا الهارب.. زمننا المسروق منا والذي نحاول اللحاق به..

لهاث كل ما نقوم به.

لو جلسنا قليلاً.. أصغينا القلب له، لسمعنا ضربات طبول القلب تعلن تحذيرها: إلى أين.. لسمعنا صوت أنفاسنا تلهثُ أين.

لم يكن ممكناً إلا أن يحدث ما حدث.. لم يكن ممكناً.

مرهقة بالتفاصيل كانت.. ضاجّ رأسها بما لا تستطيع فهمه أو احتماله.. خُنقت الحروف التي كانت قبل قليل تتدلل على شفتيها، فتحشرجت وأوشكت.. ثم فاضت بالدمع.

نامت على يدها اليسرى على الطاولة، تهلل شعرٌ عندما

مسّ أطراف الشفاه.. تهدّل.. نام على خدها كما لم يرتح من قبل، مسّ الحرير وبعثر هائماً بما يشبه تبعثري وتشظيَّ، لم يكن ممكناً ليسراي إلا أن تلمه.. جسّ أصغر أصابعي طرف فمها.. تماماً عند أول منتهى الشفاه.. لمّت أصابعي بعضاً من تفرّقها، عادت ومرّت عبر نعومات الخد، وعدتُ.. مسستُ براحة أصابعي شفتيها.. مررتُ هناك، انفرج فمها قليلاً فداخت شفوتي وجنّ كل شيء فيّ.. كانت هي من تعبث الآن بوجهي.. وكنت على شفا الموت.

لم أدر كيف التحمت شفتانا..

لم أكن أنا ذاك الذي التف بكل أغصانه عليها، لم تكن هي تلك التي أطلقت كل استغاثات الكون، كل رجاءاته.

لم يكن ممكناً ألّا يلبي دمي نداء حاراً كان يخرج من العروق ويفحّ، لم يكن ممكناً سوى أن أكون ما كنت..

تائهاً ما زلت..

لا أدري لم حدث كل هذا.

كيف عضتني رمانة كتفها، كيف اتشح ألقاً قاتلاً بنعومته، كيف شقّته شفاهي.. ونزلت منحدر الموت ذاك.. دفنت وجهي بين نهديها.. وذبت هناك.

من لمّني.. من أعادني إليّ ؟ لم أرد سوى بقائي هناك.

هناك.. حيث لم نَعِش غير الموت، فتنّا بنا ميتين ومنتشيين بموتنا العسلي.. بعذوبته.

لا أدرى متى وكيف.. نضت عنها كلّها، ونضت عني كلي.. عقلي قبل كل شيء.

كيف سمحتُ لهذا أن يحدث ؟

مررت براحتي على عذوبة الجسد، جُست كل الأماكن، لممت بين أصابعي كل النعومات.. كل تلك التكورات الصغيرة والحيية، عبقرية تشكّله، فذاذة الرقة والنعومة.

عبثت يدي بها وعبثت يداها بما تبقى صاحياً فيّ.. تعابثنا وتجرأت يداها، صارت تلم دمي من أطراف الجسد.. تروح لنصف الطريق نحو الأماكن المحرمة من جسدي ثم تعود، أمسكت يدها وأرشدتها الطريق، شهقتها.. التي تراوح بين نصف الطريق ونصف الطريق.. شهقتها أرسلتني لأصل اللهيب..

قليلاً.. لتقترب الأشياء من أشيائها.

قليلاً.. ليعبث فمي بكل مطلقها.. بكل أشيائها.

قليلاً.. ليتحرك نمها كيفما اتفق..

قليلاً.. لنمتزج معاً..

قليلاً.. وفرحت أجسادنا.. وكثيراً بكينا.. واتفقنا.. كان لا ينبغي.. يفترض.. ما كان يجب..

أخرجت حبتين من دواء ما.. وابتلعتهما سريعاً..

عادت لجلستها ولحديث أول كنا ابتدأناه ونحن نصنع

قهوتنا.. أدرك الآن أنها تلملمُ أو تحاول بعض ما أريق من ماء روحها وشبقها ورغبتها وجنونها، عادت للقهوة التي فضلت احتساءها وللتبغ.. لارتجاف الأصابع وتحرّق الاحتراق المتوتر في اشتعالها المستمر في سجائرها التي لا تنطفئ.. وترتبك في كل إشعال لسيجارة أو اشتعال لها، تحاول الفهم فلا يحضر، تحاول الرؤيا فتغيم كل الأشياء، وتتداخل الألوان والأشكال والمساحات، ترتبك الحروف على شفاه القلب، ويرتبك السلوك ويتأتئ الجسد، يرتعشُ مع رهافة القلب، رهافة الحس، فتبوح ولا تبوح، تقول ولا تقول، تصمت ولا تصمت.

.. كان يلتاث رأسي بصورتها سواء في آخر الخمر أو في أول القهوة،

كنت أفيق على تحركاتها فاذهب إليها كي أعلن عن صحوتي، لتبدأ قهوتها.

كانت خمراً، فتنة، كانت شهية حد التهلكة في مساء البارحة.

حين أفقت ذهبت إليها، جلست على تلك الطاولة الصغيرة.. وذهبت مباشرة لتركّب القهوة، وتشاغلت بها بينما نحن نواصل حواراً صباحياً مفعماً بالخمر.

أرنّم روحي في بقايا الخمر حين تداهمها رائحة القهوة

الحرة.. أفيق بينهما.. بين ما تبقى من الخمر وما يتحضر من القهوة، وتشيح بوجهها عني.. أحدثها عنها.. وهي تذهب إلى القهوة تتهرب مني.

لم يكن ممكناً حينها إلا أن أقوم من مكاني.. والقهوة على شفا الغليان..

- صباح الخير.

- صباح الخير.

ونصمت، أهمُ بألف شيء، وأتخيل ما أستطيعُ وما لا أستطيع، ترى ربكتي فتضحك: لا تحاول استعادة أي شيء من البارحة، لقد حدث ما حدث، أو لم يحدث أي شيء مما تتخيل، أو مما حدث، البارحة هو البارحة واليوم يوم آخر جديد.

وكيفما وليتُ وجهي... لا أرى إلا وجهها.

أيما صوتٌ طرق أطراف مسامعي، كيفما كانت نبرة الأحاديث حولي، أسمعُهُ صوتها.

- داخلي وحشٌ... لا أنا قادرةٌ على مسكهِ ولا على إطلاقه.

- أخرجيهِ إذن، والآن، لأنه سيخرج ولن تعرفي في أي وقت.

- أخاف.

- أفضل ألف مرة أن يخرج وأنت تعرفين، على الأقل تستطيعين أن تختاري الزمان والمكان، ربما تستطيعين التعامل معه حين تكونين متيقظةً له.

- قلت لك لا أستطيع، لو كان الأمر بيدي لأخرجتهُ منذ زمان.

- الأمر بيد مَنْ إذن؟

- ليس بيد أحد إنما قد يؤذي الأمر كثيرين.

- أينهم وأنت تقولين إن الوحدة تقتلكِ.

- حاضرين غائبين، موجودين وغير موجودين، أحبهم واكرههم.

- إذن من أجلهم، حباً أو خوفاً لا تريدين له أن يخرج.

- لا ادري.

- أبقيه إذن.

- لا أستطيع.

- إبقَيْ في المتصف إذن، في انتظار زمنٍ لن يأتي أبداً

- لا يوجد زمنٌ لا يأتي، وإذا لم يأتِ فهو ليس زمناً، هو شيء آخر، الأشياء التي أحبها لا زمان لها.

- تأتي دائماً ولكن بشكلٍ آخر، ربما تتحور، تتشوه، تفقد قيمتها ومعناها ولكنها تأتي دائماً.

- يأتي شيء آخر يشوّهها ولا تأتي هي.

- نحنُ دائماً نزيّن أو نشوه الأشياء.

- زيّني إذن أو شوّهي وحشك وارتاحي.

- الأشياء تتزين أو تتشوه عندما تخرج للحياة، عندما نعتقد أنها تحققت، هل تحققت فعلاً بكل ما فيها، الأشياء عندما تخرج للحياة تصبح شيئاً آخر مختلفاً، قد يُهدئكَ، يرضيكَ قليلاً، يفرغُ احتقاناتك، وربما يكونُ جميلاً بعد عمرٍ من العطش، أعني قد يخيلُ لكَ أنه تَحَقَّق، وأنها هي، ذات الرغبةِ الحادةِ والمتعربشةِ بدواخلك أو شيءٍ منها، حين تتسربُ من نفسك دون أن تنتبه وترتمي في وثار التفاصيل اللذيذة والجارحة... زمنٌ وتشعر أنك لم تتحقق وأن رغبتك ما زالت مرميةً هناك في قاعِ القاعِ من القلبِ.

- هذا ما يحدثُ معنا جميعاً.

- ما المشكلةُ إذن؟

- المشكلة أنهم يريدون أن يصطادونا ويحشرونا، وأن يكون ذاك الجزء الصغير الذي خرج من الروح مُلكهم وحلمهم.

- من هم... ضيعتني.

- هم أنا وأنت، والجميع دون استثناء.

- لا شأن لي بالجميع.

- هذا نوع من الوهم أيضاً.

- أعطني نوعاً من الحقيقةِ إذن.

- الحقيقة... لا أعرف، ما زلتُ أحاول ولم أصل بعد، أعرف أنني لا أزوّق.

- وأنا اعرف انت لا تزوّق، انت تفعل العكس، انت تُشوّه، تكشف، تُعرّي أشياءك أمام نفسك، تعرضها بكل فجاجتها وبشاعتها، ترسمها بشكل مختلف، يعني تغيّر حقيقتها، وتضفي عليها شيئاً غير حقيقي يُغلّفُ بأشياء غير حقيقية أيضاً.

- هي كذلك إذن، وأنا أحاول اكتشافها بطريقتي، ما ذنبي أنها كذلك، أنا أقول الأشياء كما هي أحاول وأبحث ولا أدعي شيئاً غير المحاولة.

- المحاولة هي جزء من الزينة.

- المحاولة جزء من الرحلة لمعرفة الذات.

- أنت لا تعرف نفسك؟

- مطلقاً.

- تمزح!

- أبداً.

- كنت أفكر أنني وحدي هكذا.

- لا كُلنا كذلك.

- يعني.

- يعني لا أحد يفهم الآخر، ولا حتى يفهم نفسه، وبذات الوقت كلنا يعتقد أنه يفهم كل شيء.

- وكيف نعيش إذن؟

- مثلما ترين.

- بلا لون ولا طعم ولا رائحة، حياة من غير حياة.

- الكل يمثّل، يتوهم، ويعيش هذا الوهم، الوحيدون الذين يقتربون من السعادة هم الذين يستمرون بالحلم إلى أن يموتوا، لذا قالوا: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا".

التفاصيل كما جمر النار.. يدفعك البرد (الفقد) إليه.. تقترب لتأخذ شيئاً من الدفء لتبعد عنك كل البرد.. كلك برد.. وجمر صغير يتعانق متصلاً ومتواصلاً بالدفء.. يبدأ دفء صغير بالوصول إليك.. ترحب به خلايا دمك وتتحمس له، تجري سريعاً إليه، ينعكس وهج النار على أطراف أصابعك التي تخيّم فوق الجمر، يتعانق خفوتها مع خفوت اللونين بين راحة كفك وظهرها.. يتوهج شيء بينهما في المتصف، تتوهج رائحة التبغ الحار بين أصابعك حين تمسح بهما وجهك.

قليلاً وتخبو قليلاً نيران الجمر ويكتسي الأسود بالفضة

التي يتخللها احمرار بقايا لون النار خفوتاً وألقاً، يزدان الجمر بالفضة ويزداد اللون.

شيء يأخذ أصابعك للاقتراب أكثر.. للمس الرماد الذي لم يترمّد بعد.. وما زال لم يغادر مكامن النار، تقترب أصابعك أكثر، تغريك للذاذة لمس الرماد ونكهة الاقتراب من لسع النار لمسامات أصابعك. . ما الذي يغريك لتمسح مسام الرماد العالق فوق الجمر؟ ما الذي يمتعك في أن تداعب وهج الفضة.. تلامسه وتفرح باللسعات الصغيرة وهي تنقلك من حالة البرد إلى حالة النار كأنها حالة لا تقاوم.

ما الذي يغري بالاقتراب أكثر؟ بالاحتراق أكثر بتفاصيل المرأة، تفاصيل المرأة.. فضة ما ترمّد من نيران الروح، الفضة الأقرب إلينا.. لدواخلنا المبهمة.. هي ما يدفعنا لأن ننلسع مراراً بالنار.. هي ما يغرينا بالاقتراب والاحتراق لا إرادياً . .

تفاصيل المرأة جمر النار.

وصل خامس

كيف لرجلٍ أن يقول لرغبةِ امرأةٍ، لا، كيف له أن يصدّها دون أن يجرحها، دون أن يُشعرها أنه يصدّها... كانت هذه أول ثغرةٍ فَتَحها له في القلب، قبل أن يحتلهُ كله.

كنتُ ثملةً بالكون وبالخمر... طلبتُهُ فما وجدتهُ، بحثت عنه حتى قيل لي إنه في بيت صديقٍ له، ذهبت إليه، وجدتهُ جالساً وحدهُ يحتسي مشروبه الخاص، ويُمزمز أغاني صديقه الحجار. وصلت، جلست، سألني إن كنتُ أرغبُ بالشرب، فأومأتُ برأسي، سأل:

- على طريقتي.

- على كل الطرق.

ضحك وقال: شرط أن لا تثملي، لأنني متعب وغير قادر على الاهتمام بأيٍ كان، أريد ان أرتاح، أن أثمل دوري، تعبتُ من ثمل الأصدقاء، لذا جئتُ هنا كي أرتاح قليلاً، وطلبت من صديقي أن يتركني وحدي، فأنا لا أستطيع أن أثمل أمام أحد، وها قد حضرتِ فلا أريد أن تشغليني بثملك.

أجبت: يا ريت... هنالك خطأ في تركيبتي، فأنا لا أثمل.

أجاب: أتمنى.

سكب لي كأساً من مشروبه الرديء، ملأ ثلث الكأس وأراد أن يكملها بالبيرة، اعترضت.

- لا، أكمل واملأه من مشروبك الرديء في البداية.

ضحك.

- هل تريدين ذلك حقاً.

- نعم.

فعل، ملأ الكأس، وقبل أن يغلق الزجاجة ويضعها جانباً، كنتُ قد أفرغت الكأس كاملاً في جوفي ووضعتهُ أمامه على الطاولة، وقلت:

- الآن امزجهُ مع البيرة.

فوجئ، وفعل، ثم أشعلتُ سيجارتي وبدأتُ الحديث، فما وجدتني إلا أمارسُ هجومي القدري عليه، أتحدث عن المرأة والحرية والقهر، عن الكبت والجنس، عن الجوع المعشعش في القلب، عن الجسد، عن الرغبة، ومع الحديث حللتُ أزرار قميصي وفضتُ عليه أهمُّ به، تفلّت مني بشكلٍ عجيب، لم يرتدّ للخلف، لم يرسم على وجهه تعابير أعرفها، بل اقترب مني وكنتُ أنا التي بدأت الاقتراب، اقترب أكثر وبدل أن يقبلني، ضمّني، ضمّني بحنان، وصار يُمسّدُ على شعري وظهري، ويقرأ من نشيد الإنشاد، ذاك

النشيد الذي لسليمان والذي كان أهدانيه حبيبٌ لي، أهداهُ لي بأن حفظه غيباً وتلاهُ في عيد ميلادي،

"ما حبيبكِ من حبيب، أيتها الجميلةُ بين النساء. . . . "أنا نرجس شارون سوسنة الأودية، كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات، كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي، أدخلني إلى بيت الخمر وعلمه فوقي محبة، أسندوني بأقراص الزبيب أنعشوني بالتفاح فإني مريضة حباً، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني".

ثم تلا من ترانيم الجمعة الحزينة التي لفيروز، بعد أن أعاد إجلاسي بجانبه، وصار يلقي الشعر، ويغني من أغانيه، التي للشيخ ولمارسيل وسميح، وهو يلعبُ بشعري دون أن يحاول إغلاق قميصي المشرع.. ونهداي اللذان كنتُ فككتُ أسرهما وتركتهما كي يؤازراني بالهجوم عليه، هدءا بعد أن كنتُ أخالهما فرسين جموحين. . يبدو أنه روّضهما، ثم وضع رأسي على فخذه، وصار يهدهد روحي بـ:يلا تنام ريما. . . يلا يجيها النوم.. يلا تحب الصلاه. . . يلا تحب الصوم. . . . . . .

فصرتُ أبكي، وتابع هو غناءهُ وغناه، قليلاً وهدأت،

ولـم أتقبّل الهزيمة، قمت جلست وأعدتُ هجومي كرةً أخرى، نزعتُ قميصي عني.. ألا أعجبك... أليس صدري جميلاً.

- إنه جميل جداً وساحر.
- ألا تحب أن...
- أحب، لكن ليس الآن...
- أعرف أنك تشتهيني.. لماذا تؤجل؟
- ليس الآن.
- بل الآن.
- أنا متعب ولا أستطيع أن أفعل شيئاً.
- ليس مطلوباً منك أي شيء... أنا التي ستفعل.
- أنت تثيرينني سواءٌ أكنت بثيابك أم بدونها.
- إذن هيّا.
- حسناً لكن لا بد أن تغنّي لي، غنيتُ لكِ ساعةً كاملة، وأريدكِ أن تغني أنت الآن.
- بل سأرقص لك.
- سنرقص بعدها، أولاً غنّي.
- ماذا تريدُ أن أغنّي.
- ما تحبين.

ولا أدري لماذا بدأتُ بغناءٍ حزين، كنتُ أغنّي، مال على صدري، وضع وجهه بين نهدي، كطفلٍ بلا شهوةٍ،

منتديات العشق العاشر

وجهه كان ملتصقاً بنهدي، ولم أشعر برغبته، شعرتُ بحنانٍ من نوع ما، حاولتُ أن ألقّمه حلمتي، أزاحها بأنفه بحنان، ووضع خده على صدري، وأغمض عينيه...

قال: إذا كنتِ تحبينني، دعيني أنامُ قليلاً هنا...

وضعتُ يدي على رأسه من الخلف وانسبتُ نائمةً على جنبي ورأسهُ على صدري بين نهدي، سكن وسَكنتُ أغمضتُ عيني، وبدأ صوتي خافتاً:

صُرّةُ المُرّ حبيبي لي بينَ ثديي يبيتُ

لِيُقبلني بقبلاتِ فمه، لأن حبكَ أطيبُ من الخمر

لا تنظرن إليَّ لكوني سوداء لأن الشمس قد لوحتني.. بنو أمي غضبوا عليّ جعلوني ناطورة الكرومِ أما كرمي فلم انطرهُ.

أحلفكن يا بناتِ أورشليم بالظباءِ وبأيائلِ الحقول ألا تيقظنّ و لا تنبهنّ الحبيبَ حتى يشاء.

أنا نائمةٌ وقلبي مُستيقظ.. صوتُ حبيبي قارعاً، افتحي لي يا أُختي. يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي لأن رأسي امتلأ من الطّلّ وقُصصي من ندى الليل.

قد خلعتُ ثوبي فكيفَ ألبسه.. قد غسلتُ رجليّ فكيفَ أوسّخهما.

حبيبي مدّ يدهُ من الكوة فأنّت عليه احشائي.

قمتُ لأفتحَ لحبيبي و يداي تقطرانِ مُراً وأصابعي مُرٌّ قاطرٌ على مقبضِ القفلِ.

فتحتُ لحبيبي، لكن حبيبي تحوّل وغيّر نفسي.. خرجتُ عندما أدبر.. طلبتهُ فما وجدتهُ، دعوتهُ فما أجابني.

نام فترة كافية، أوصل إليّ الكثير من الرسائل التي لا يمكن بغير طريقة نومه هذه أن تصل...

قال إنه لا يريدني بدون أن يقول، دون أن يجرحني، دون أن يصدمني... قالها وقال الكثير، منذها.....

منتديات الكوكب العاشر

وصل سادس

الروائي..

دكةٌ في الطريق الطويل إلى الله تروي جنون البشر.

دكةٌ تمرّ بها كل الرياح، كل الأمزجة، كل الفصول.. يمرون فرادى أو عواصم.

يرثُ أدواراً خسرها مسبقاً، فقد كفّ عن تكرارِ روحهِ الملول، كفّ عن كلِ إمتاعٍ أو مؤانسة، كفّ عن كونه موظفاً عند أحد، طار به حنينهُ ليروي لنفسه، بعد أن استطال عمر الروايةِ لأجلهم.

أفاق ذاتَ صباحٍ على رغبةٍ منه برواية، روايةٍ لا يعرفها، روايةٍ له، تفعلُ بهِ.

مَلَّ مِقعدَهُ، أمامهم جميعاً، يروي وهم يستمعون، يرحلون عبر أحداثها وأحاديثِها، ويحلّقون، يتخيلون ويعيشون، وعندما يرحلون تبقى مُعلقةً بأهدابِ أحلامهم، تتناغمُ مع أمنياتهم، يلتبسون بها وتلتبس بهم.

أرادَ أن يُحس هو ذاك الالتباس اللذيذ، فكفّ عن الكلام، بحثَ في الزاويةِ عن بقايا الكلام الذي كان يريدُ أن

يقولهُ ثم أعرضَ عنه في أثناء مسيرةِ الروي. . . في كل الحكايا كان ثمةَ ما يخطرُ في بالهِ، ثمةَ ما يبدأ بقولهِ ثُم يُعرج عنهُ نحو ما يعرِف أنهم يحبون، فيذهبُ نحو رغبتهم، وينسى رغبةَ الروايةِ وحنينها للانسياب التلقائي والعذري نحو أشيائها، أدركَ مؤخراً أنه هو نفسه يشوّهها، يمنعها من النمو والاكتمال.

فوجئ بهم يبحثون عنه في روايته، فذهب معهم وراءه يبحث عنه، وفوجئ به في منتصف الطريق يسأل نفسه لماذا يبحثون عنه؟ هل يبحثون عن أنفسهم من خلاله أم يبحثون عن الرواية الأجمل فيه؟ روايته هو وليس الرواية التي يرويها. هل روايته حقاً أجمل مما يرويه؟ وهل هي روايته هو حقاً؟ وإذا كانت كذلك فما الذي يغريهم في البحث في تفاصيله وأعماقه.

وكأنه أراد أن يتحرر من كل شيء، ولكن، دوماً تعيده الأشياء إليه.

ولا يستطيع الوقوف على مسافةٍ من الأشياء، لا يستطيع إلا الدخول بداخلها، شيء فيه يشبه الانتماء، انتماء ما، لكل شيء مهما بدا غريباً أو بعيداً، ولا يستطيع الوقوف بعيداً عن الناس فهو مصابٌ بهم، وهم متورطون به، لا يستطيع أن يضع مسافةً بينه وبينهم، فهو منغمسٌ فيهم، يغضبُ على نفسه أحياناً لأنه يشعر أنه يقدم الرواية على الحياة.. يعيش ليكتب، يغضب، فيترك الكتابة ويهملها، لا يريد لها أن تفسد حياته،

التي يراها أهم من أن يضيعها في الكتابة، يذهبُ اندغاماً بالحياة التي لا تهبهُ الا غُربتين ونوعاً واحداً من البؤس المكرر، يصطدم دوماً بلا معنى الأشياء وبلا جدواها، فلا يجد غير الكتابة يقرّبهُ منهُ ومنها.

ولأن كل الأشياء صارت تضغطُ على روحه، لأن كل شيء تحوّل إلى قوانين لا ينبغي كسرها ويجب المحافظة عليها، ولأن سلسلة القهر صارت لا نهائية، ولأن أصابعهم وصلت إلى تفاصيل الأشياء، إلى تفاصيل التفاصيل وصاروا يتحكمون بكل شيء.. فقد نما حنينٌ للتجريب أو للتخريب في أرواحٍ كثيرة، لذا فقد صار يكره كل المهندمين، كل المرتبين، كل المحافظين، صار يكره كل شيء يخدع بتماسكه، كل شيء يتواطأ ويمرر

صار يشعر أنه لا يمكن لشكل الرواية التقليدي المتين والمتماسك أن يعبّر عن كل تشظياتهِ عن كل هشاشته، لا يمكن لكل هذه المتانة والوضوح أن تعبر أو تساهم في التعبير عن كل الحيرة والتيه، عن ذاك الاغتراب العميق والحاد والموزع على الجميع بالتساوي، عن كل ذاك الشك والضياع، وعن عدم القدرة على مسك أي من تلك الخيوط التي تساهم في تشظي روحه وأرواح الآخرين. . . يشعر أن الرواية تتململ وتحاول أن تخرج لشكلٍ ما، فصار يحاول. . .

الروائي..

ماذا تفعل الآن أو في أي وقت؟

أنا الكافي والمكتفي، الثاقفُ والرمح واليدُ التي ترمي، وأنا الهدف.

لا علامات فارقة لدي، لم تأخذني عُقد التميّز والاختلاف، أستمع ولا أقول، كفّ وعيي عن التنظير منذ طفولته، أقول ولا أقول، أسرّب الأشياء بهدوءٍ، أبينُ ولا أبين.

وأنا مُسربٌ كالعمر، كالزمن النازف، والزمنُ دمي.

كان لي مكانٌ، أثثته وأنسنته، أعملت مخيلتي فيه واختلت، واختلينا معاً حتى ضقنا ببعضنا بعضاً، ثم.. أن غباءً ما حاول حشر المطلق بلونٍ أو حجمٍ أو مكانٍ.. فتفارقنا.

تركت الأشياء بكليتها، تركت المكان بكل علائقه البريئة والمشبوهة، ورحت أبحث، أهربُ بي لأماكن أخرى.

وما دامت الروح تتهجى روحها ولا تدركها، ما دامت تعاقر نفسها وخمرها وفكرها في بحثٍ وحنين... ما دامت تلك الأسئلةُ الحرّى تطرقُ أبواب الوعي وتعصفُ بالذاكرة... فساروي لي... وأغويني.

الروائي...

رغبةُ الشاعر الفاضحة.. روحهُ المبهمة والمربكة والمغصومة حنينهُ للنثر.

نعومة روحه.. طفولتها، رهافة حسه التي تُنتهك،

وحشية الخشونة والرعونة، فجاجةُ واقع التخلف حين تداهمُ بحقوقياتها حساسيته..

شقوةُ وشقاوةُ شاعرٍ لا تنتهي، فيضُ العشق، وفوضى الشعر.

الروائي..

نديمُ الشاعر الوحيد، يعرفُ كيف يمزجُ الأشياء بالمزاج الحاد كالسيف، يعرف تفاصيل الحدّةِ، يعرفُ كيف نلتاثُ بالغباش بين وضوحين، يعرف إلى أين يرنو الجميع... فهو مقيم هناك.

هو.. ربُّ التفصيل المهلكة والمهملة، التفاصيل التي لا تقود، يجمعها وينظمها، يغزلها، ليصوغ أصل العموميات المغوية عقلنا الجمعي.

هو.. ربُّ الالتياث، ونصفُ الالتفاف، صانعُ الانتباه المُهمِل، مهمل الحواس التي تقود ومدركها، لاعبها والملعوب به.. والمدركُ سر اللعبة... حد الصمت.

***

لم أعد أذكر بأي معرفة دخلتُ، أي الكلمات قلتُ، أي فكرة راقت لها، أي إيماءة أثارت حفيظتها، أي انكسار شفيف، أم أي فحيح أخرس يتحشرج في زهر الشبق المجنون في قيعان الروح، فترسل العين ناراً تحرق أو تنير.

ما بين مطلَقين، مطلقِ سيطرتي ومطلقِ انفلاتي.. أراوح ولا أريح، وما من مثير يلاعب شقوتي غير وجو شفيف أرشفه كلما حامت بروحي كل الأوَل.

هذي المدينةُ آن أوان فتنتها... والفتنةُ سرد.

هنيناً لهم صَيّروها مدينة... اليوم أكملوا لنا مدينتنا، وصار لنا شتاتنا الحقيقي، صار الاغتراب سمة عامة، كَبُرت وملؤوها بالبؤس والمواخير وكل متطلبات السرد، الآن نفيق على عمان مدينة، نفيق على كل مشاريعهم.. على بؤسنا.

وأين هنّ يريننا، أين هن الرائيات، أين من كُنَّ سبباً لكل ما يحدث لنا وفينا، أين الشفيفات اللواتي من عبقهن، من رقة أرواحهن كُنا،

الرائيات...

الرائيات رأي العين، ورأي العمر، ويختلط الأمر، أبعينِ العمر أم بالعينين يُرى، بأرواحهن تمور وتفور كل المبهمات، وبهنّ يُسَرُ السرُ، وإليهنّ يسير، ويحنُّ إليهنَّ حمامُ المبهمات فينثرنَ للروح حبوب المعاني، لتؤول إليهنَّ كل التفاصيل، وتؤوبَ لأرواحهن كل الرياح.

وهنّ سِرُّ تحناننا، هن ابتداء الكلام وما تفرغ فيه، ما استطاع حملهُ وما لم يستطع، وهنّ المعنى حين لا تستطيع الروح حدّه فيفيض إليهنّ، فلا يُسَرُّ ولا يُسِرُّ إلا إليهنّ.

مضيع الروح ومستقرها، أصلُ الغنى والفقر.

يلتثنَ بكل شيءٍ، يخالطنهُ، يمتزجن به، حين يحضرنَ يغيبُ كل شيء، وحين يغبنَ يزددنَ حضوراً.

هنَّ أصل الحكايا، ومن أجلهن وجد كل شيء.

وهنَّ الرائياتُ بلا بوحٍ، هنَّ العارفات بلا قولٍ، يحترفن العيش، يُتقنَّهُ تماماً، ولسنا نحاول غير اللمم، فهنَّ رباتُ التفاصيل، تفاصيلها، لهن كل الألم، أعذبهُ، ما تعتّق منه وما استطاب، ما استعسل في القهر، ما تلذذ من قمعٍ أو منعٍ، ولهن كل المنح.

الرائيات العمر... عمرهنَّ غلالةُ إطار لا يُرى أي شيءٍ إلا من خلالهِ.

الرائيات... يختلطُ العمرُ بالعينِ بلا أدنى فرق.

الرائيات بالعمر وبالعينِ كل ما يبين ولا يبين.

يلتثن بكل شيء، حتى لكأنهن قادرات على أن يحضرن ويلتغي كل شيء.

لهن وحدهن ألق الحضور، وخفر الغياب.

يتساءل الروائي... كيف يسرقون براءات الطفولة، نقاوات الأنوثة وعذوبتها، كيف يعكّرون كل العذوبة المخلوقة والمصوغة لسر الأنوثة، كيف يصيرونها نسخاً مكررة.

كأن الرواية أنثى.

سيدة الرواية... سيدتي الرواية.

منذ أول حفر على أولِ حجرٍ وأنا أنتظر.. أنتظرُ بوحك كي أقول... وأنت ربةُ الصمت... ها أني أحاول صمتك.

لم يعد يستطيعُ العيش، لم يعد يستطيع الكتابة، غارت روحه عميقاً في الكآبة، تشظى على شطآن الموت.. وما زال يواصل هدر دم أيامه في اللاشيء هنا.

الحزن في إربد يموسقُ.....لماذا يحضرُ في عمان فجاةً ومداهماً، بشعاً وغبياً.

***

منذ دخلتها لم تكن حنونةً، وللآن لا أعرف هل تكيفتُ معها أم لا، لكنني ما زلت أفني العمر بها، وأستغرب من نفسي كيف لي أن أفني عمري الوحيد هذا في مكان لا أكاد أحبه ولا آلفه.

كنت، أحرضها سابقاً على نفسها كي تفيق على بكائنا الليلي في أزقتها وبيوتها، ولم تكن حنونة، لم تكن دافئة.

أحبها ولا أحبها، أكرهها ولا أكرهها، أعرف كل عيوبها، وأعيش قسوتها وفجاجتها، صفاقتها أحياناً، لكنني لا أستطيع مغادرتها، ارتباطي بها غير مفهوم، مربك، شديد الخصوصية والالتباس.

لا أستطيع المشي في عمان، فهل ستكون أرضاً لكل ما سيحل بي، أرضاً للغني وروحي وجنوني، أرضاً للرواية.

المكان صار طارداً، والأرض تغدو كلها يباباً، والإنسانية تواصل تشظيها المستمر والذي يبدو أنه لانهائي،

الأمكنة صارت تتشابه، الخصوصيات تذوب، كل الأشياء تغدو شكلية، القسوة تعلو كل شيء، وحنين الروح لروايتها من الصعب أن يعود؛ اجتراراً لجمالات الماضي، فإلى أين تذهب بنا هذه المدينة، إلى أين يأخذنا الزمن، إلى أين يريدوننا أن نذهب.

المكان.. أسرٌ، وحسرةٌ في القلبِ، وغابات جمال.

المكان.. منطلق وأرض المخيلة الخصبة للتحليق عالياً وبعيداً، ربما نصطاد رؤىً تفتت ما تبقى منا، أو رب انلمامٌ ما، تهديه هذه الرؤيا وتقود إلى طريق.

المكان.. أرض الخسارة وحسرة الفقدان.

وعمان.. غربها يغمض عينيه ويمضي مسرعاً غرباً، يغترب بشكل سطحي وساذج ومستفز وشرقها يشرع جوعه ليبرر أي شيء.

غربٌ يتجه نحو "الأمريكان آكسنت" والصرعات، نحو التقليد الكامل، يحاول أن يثبت شيئاً ما بأمركته.

شرقٌ وغرب يجتمعان معاً ليطرداني، فأقف في المنتصف لا دارياً إلى أين أذهب، ورَغم كل الخراب، رَغم كل شيء، أحسّ بشيء يحتمل داخل هذه المدينة، شيء ينمو، يتطور، يتخمر، شيء يحضر نفسه ليخرج كاملاً، ناضجاً.. وجميلاً.

وصل سابع

وحبيبي الناعس لا يأتي إلا ليلاً، ولا يصحو إلا خمراً، ولا يُرى إلا في غيابه، لا أموت عليه وله إلا غائباً.

وعندما يحضر... تقفز كل الأشياء بوجهي..

تمّحي من قلبي وعقلي وذاكرتي كل تلك الليالي، كل تلك الاشتهاءات والشقاوات، كل الأشياء الحبيبة، امَّحي كلي من الوجود.

عندما يغيب أحضر، وفي حضورهِ أغيب.

من أنا بالضبط وماذا أريد؟

اعترضتُ حين كان يقتبس "أنا العاشق السيء الحظ".

- هذا زمنٌ طاردٌ للعشق. هل أنت عاشقٌ حقاً؟ مطلقاً لا يوجد عشاقٌ بهذا العصر...

لا يأتي إلا خمراً، هو ليس فصاماً أو شكل فصام، وما هو بمرض، إنما يصيرُ شيئاً آخر عندما يدخل في غمامة الخمر، ليس ثملاً أيضاً، فأشياؤهُ تبدأ زهوها وهواها قبل أن يبدأ بالشرب، ففي حضور الخمر أو مجرد ذكرها، يلتمع الق

منتديات الكوكب العاشر

في عينيه، ويصيرُ له غير ذاك الوجه... أو يعود هو كما أعرفهُ وأحبه.

كيف يكون ذاك الذي لا أعرف.. من هو بالنسبة لي؟.. ما حبيبك من حبيب!..

يدخلني صوته، ويفعلُ فيّ شيئاً لا أدريه.. صوته.. ذات الصوت بجرسه، برنةِ حرفهِ، بتهدجِ الإيقاع الرحيم والمذبوح بذات الوقت، وممزوجاً بعطش الإنسان المطلق للفرح وراكضاً وراء هذا الوهم، واهماً ومؤمناً بالوهم، مؤمناً لدرجة التلبس حتى ليظهر في بعض الأحايين أنه قد وصل، ترى فعلاً أن كل السعادة مرتاحةٌ على وجههِ الطفولي الصغير، ترى حقاً أنهُ متحققٌ وسعيد، كيف يحملُ كل هذا الصوت، كل هذا المعنى... يا لصدقهِ، يالجمال روحه وتشظّيه، ويا لكلِ معنىً تصطادهُ روحهُ أو يصطادها فيه، حاداً على نفسهِ ورائياً، وشفافاً ونقياً ومبرراً للآخرين كل أشيائهم ورائياً فيهم ما لا يعرفون من جمالهم وما لا يدركون، صائداً روحهُ دائماً ومذلّها.

لا يليقُ الغرور إلا بوجههِ، ولهُ وحدهُ أن يكون ما يشاء، ووحده الذي يمنع نفسهُ ورغبته وهواه. كأنهُ القابض على الجمر وما هو يلين.

وما هو بحبيب.. هل يمكن أن تحب إنساناً أكثر من الحبيب، وأنا لي حبيبٌ، وحبيبي ليس لي، وهذا ليس حبيبي، فكيف لا ألبس، كيف لا تختلطُ الأمور عليّ، كيف

حين أكون على خمرهِ، كيف لي أن لا أختلط، كيف وهو يفضح نفسهُ.. يمسكها، يمررها أمامي، يمررهم جميعاً أمامي، رغبةً شهوةً شبقاً وعداً فرحاً حزناً خفةً وثقلاً.

وهو كما العمر أغنيةٌ... حين كان يأخذني معه، لغنائهِ وغناه كنتُ دائماً أستمع، أنا التي لم تحتفظ من طفولتها إلا بالملل السريع، كنت أقلُّ من الكلام لكي لا يعرف، وكان يُفيقُني في أولات الصبح من غوايتهِ ويوصلني إلى البيت، ويطلبُ مني أن أدخلهُ لكي أرفض

'هو سماني أنا أغنيةً..........'.

كم كان يفضحُ نفسهُ أمامي، ويقول ما لا يقال، كي أبقى متشبثةً بي وأبقيهِ بعيداً، ليس لأنه لا يرغب، ولا لأن لديه طرقاً مجنونة للدخول، كما كنت أتخيل.. ببساطةٍ لأنه مجنون فعلاً، مجنون حقاً ومختلف وليس ابناً لأي عصر، أشعر أنه الابن الوحيد الحقيقي للحياة، هو وحدهُ الذي يستحقها ويتقنها ويحترفها بمعاكسته المطلقةِ لكل ما هو انتهازي، ولا يريد أن يستثمر أي شيء، يعشقُ كل الحياة بكل تفاصيلها، يعشقها بجنون، ولا يسمح لأغلى رغبةٍ عليه أن تجعله يتنازل أو يكذب أو يسعى لها ليشوهها ويشوّه نفسهُ كما يفعل الآخرون، يعاكس هواه إذا كان سيمس روحهُ أو أي إنسانٍ بأي شيء.

نعم كان يعرف كل ما في داخلي، ودون أن أقول، كان يسترق السمع لصمتي، تمادى صمتي مرةً، عَطِشَت سِنُ

لساني فاحتواني، بلّ رضاب القلب بكل ما حوى واكتوى وعوى، تَعسّلت روحي بعُسالةٍ عنيفةٍ، وما كان مطراً، وما كان ذكراً، وتهتُ في عبث الكلام، ما تكلمتُ، ما نبستُ بنت شفةٍ، لكنه شفّني وكشَفني، ونضا عني كل تعب العمر، "كنتُ أقيم بشغاف القلب" كان يقول، ولم أكن أدري أين يقيم.

نعم كان يحبني ويستطيع أن يقول... وكنت صمتاً أو احتيالاً، وكان يعرف، ولم يكن يهمني أن يعرف.

هل صرتُ قلعةً دون أن أدري، عصيةً حتى عليّ.

كم مرةً مسّ المسام، كم من خشن أو وثير الملابس مسّ، يشتعل توقي لكل الاشتهاءات، كيف للمسةٍ واحدةٍ، كيف لقبلةٍ، كيف لعضةٍ، كيف لأي شيء أن يشفي كل الرغبات المكبوتة، والمخزّنة في جين الجينات، بكل ما تراكم وتراكب فيها من قهرٍ يفضي إلى عهرٍ، يفضي إلى مسّ تشتهيه، فتمتدُّ اليدُ ليكون، كم احتاجت يدي لتأخذ دربتها، وتهتدي للهيب.

أريدك بكل مجون نساء الأرض، ولا أريد، وتأخذني معك، تركب بساط الخمر ونطير... أيها الغبي أنت، أنت الأغنية، وأنت من بحيل الحروف ناراً ما عطشت سيني إلا مذ رأيتك تَعيل كل الحروف، ترضعها بالمعاني الحارة والحارقةِ قاع القلب، وتشير لي ألّا أتبعك، كيف لأي امرأةٍ ألّا تعشقك، كيف يمكنني ألّا أدوخ، ألّا تدور بي الدنيا،

كيف لي ألّا أتبعك... تخورُ قواي، أملك لك أو عليك، أموت لك، وأنا جالسةٌ على ذات الطاولةِ غير قادرةٍ على أي شيء، تُحيلني غباراً، محض رمادٍ، كان إنساناً في ما مضى، ساعاتٍ أحتاجُ لكي تخرج روحك مني، ساعاتُ موتٍ حقيقيٍ تلك التي أحتاجها كي أستطيع القيام عن الكرسي، كي أستطيع المغادرة، ترجّ رجاجة عقلي الذي به أتباهى، تؤرجِحُني بين ناريك، هل ستصدقني إذا قلت: إنك أحييت فيّ أشياء أمتُها منذ ستة أعوام، ولن أسمح لها أن تعود الآن... هل عرفت الآن لماذا أغيب، لماذا أحاول إبعادك عني، ثم هل عرفت الآن لماذا أعود.

معهُ وحدهُ صرتُ أرى بوضوح، صرتُ أعرفُ الناس جيداً، أعرفهم حقاً. صرت أقرأ جملهم وتعبيرات وجوههم القادمة قبل أن يقرروا قولها أو رسمها على وجوههم.

لا أحد يمكنه ان يتخيل كيف وأين تشكل هذا الكائن، من صاغهُ بهذا الشكل، كيف هو هكذا، غريبٌ كل شيءٍ فيه، أنا التي أضاعت أكثر من عمر في التأمل في البشر والتعامل معهم ومعرفتهم، أنا التي أفنيتُ كل هذا العمر منغمسةً للحد الأقصى في الناس وفي البشر، جميع أنواع البشر، عرفتهم جميعاً وفهمتهم جيداً، عشتهم، وعشقتهم، وكرهتهم، وصنفتهم، عشتهم ولم يعش معي أحد، حتى شريحته التي ينتمي إليها - هذا إذا كان ينتمي لأي شيء - عرفتهم وما أحببتهم.

وحده استعصى على الفرز..

صار يناديني صوته.. يحضنُ مسامعي.. يغرقني توقهُ.. يغلّفني حضوره بالبهاء الكلي ويرفعني جمالهُ وغَوصُهُ فيما لا يدرك، يمس أماكن فيّ لم أصلها أنا بعد، ينزع عني حرير الرضى، ينزعني مني وعني بنعومةٍ، يغلد سهوي ويجيئه من حيث لا يحتسب، يريني نفسي بحدةٍ لا قسوة فيها، حدةٍ شفافةٍ، بنعومةٍ حادةٍ، ينسلّ داخل قيعان قلبي وذاكرتي وعمري، ينقلُ كل أسرار العمر، ويرسمني بريشة وعيه المرهفة وبكل حُنوٍّ.. ثم.. يبكي

سادرٌ في غيِّه، موغلٌ في بعده فيه وعنه، ملتوٍ بنفسه ومستغنٍ بها عن كل شيء، لا يشغلهُ عنه شيء، وحينما تدخلُ الدنيا عليه، تجتازُ كل خطوط دفاعاته، يغمضُ عينيه والدنيا عليه، فلا يدخلُ كونَهُ إلا بعض أشيائها العالقة في قلبه، وما لم يستطع الشفاء منه بعد، وكنتُ انا بعضَ هذا البعض.

***

مُبتلى به وبكل ما فيه.

هل كنتُ أخاف منه؟ لا أدري، فقد كان يفتح كل قلبه، ويقول كل ما يريد بلا خوف، كان يسرد تفاصيل همه وعشقه لكل شيء، للإنسان، لمطلق المرأة، للأنوثة، لله، وللوهم،

ولأشياء لا أدركها... وعلى الأغلب لم أكن أبوح له بشيء، لم أكن أستطيع أن أقول أي شيء خصوصاً عني، ولا أدري لماذا، ربما أنّ من أعطاه الجرأة والقدرة على الكلام أعطاني الخوف والصمت.

لم يكن يراني إلا كما كان يريد، كان معمياً به، لا يراني إلا من خلاله، لم يكن يمنحني الوقت الكافي ليراني كما أنا، لذا فقد بدأت المسافة تتسع ما بيننا، لأنه دائماً مشغولٌ بما فيه، ويحترقُ بالنيران التي تشغله.

وعلى الرغم من ذلك فهو غالباً ما كان يقولني، ويقرأني حينما كنتُ أرتبك ولا أستطيع أن أقول، كان يعرفني ويقرأني غالباً، لكن شيئاً ما داخلي كان يبقى عصياً وقصياً، أشياء لا يمكنني أن أضعها أمامه ولا حتى أمامي: ولا أمام أي أحد، أشياء لا تدرك، ولا تناقش، أشياء لا تحكى، وأشعر أنها عصيةٌ على الكلام، تلك الأشياء وحدها هي التي تقودني إلى حيث لا أدري، لذا فلا يمكنني إلا أن أُؤمن بالقدر.

وكأن القدر الذي يقودني هو الذي يضع تلك المسافة ما بيننا.

كنتُ أسألهُ.

- لماذا تكتب؟

- لأني أريد أن أتمسك بأهداب الخلود، أشعر باغتراب جوّاني عميق، أصيل ومتجذر، أشعر أني أقف على حافة الكون، على تلك الحافة المقابلة للكون تماماً، وأشعر أن في

شيئاً يدفعني للكتابة، أشعر أنها فعل لا إرادي، أحاول القبض على مبهم فنيّ وعلى كل مبهمات الأشياء، أشعر أننا نخدع أنفسنا وأن الأشياء تخدعنا، شيء فنيّ يقول لي: أزل عن الأشياء زينتها وقشورها الخارجية، لا تنخدع بما ترى، ثمة ما هو أصدق في العمق.

- خذني معك.

- أنا لا أدري إلى أين أذهب.. إلى أين آخذك معي، أنا أبنيني لأهدمني، لأبنيني لأهدمني، وما بين الهدم والبناء وعيٌ مطلق أو عبث مطلق.

- أليس العبث نوعاً من الوعي؟

- أليس الوعي نوعاً من العبث؟

- لا.. على الأقل حين تكون واعياً يصير للأشياء معنى، يصير لها طعم ولون، وجود وحقيقة.

- أي طعم وأي معنى حين يسحبك الوعي للخروج من الأشياء والنظر إليها من الخارج، أي معنى وأنت تراقب ذاتك.. طبيعتك، متعتك، أي متعة حين تصبح تراقب حياتك ولا تعيشها، تفكر ولا تسلك، تتردد ولا تنساب.

- أي متعة في الانسياب التلقائي، الغبي والحيواني، أي متعة في أن تقودك البيولوجيا.. أي متعة في أن تنسرب مع القطيع.

- وأي متعة في اغترابك عنهم وعنك؟

- متعة الاختلاف.

- هذه متعة الباحث عنها، متعة نصف الرحلة، متعة المراهقة الفكرية.

- المهم أنها متعة، التسميات لا تهمني.

- هي ليست تسميات، هو أمر، قد خبرته واجتزته، أو هو قد أخذني وتجاوز بي تلك الحدود.

- لا حدود للذهن.

- بل له طبيعة عمل محددة وسقوف وحدود لا يمكن تجاوزها.

- إذن أقم عندها ولا تغادرها.

- المشكلة أنني هناك، ولا أستطيع التقدم، ولا أستطيع العودة.

- لماذا؟

- لا أدري.

- خذني معك، خذني هناك وأنا سأدلّك على الطريق، أنا سأعيدك.

- أنت تعيدينني الآن لكن لا تدركين من أين، جزء من التمزق هو عدم القدرة على الإقامة هناك وعدم القدرة على العودة، موزع ومبعثر بين الطريقين، مشتت للحد الأقصى، مؤمن حد الشك وشاكٌّ حد اليقين، حاضر حد الغياب وغائب كلي حضور.

- وهل يوجد شيء أجمل من ذلك؟

- نعم.. أنتِ، وانسيابي فيكِ، خوضي في تفاصيلك الصغيرة والتي قد تبدو تافهة، أنت بكل تفاصيل التفاصيل.

- إذن خذني معك.

- لا نطير إلى هناك إلا بغفراننا.. هل جرّبتِ أن تكوني قاضياً تائباً؟ أنا شخصياً ما زلت أحاول، هل يمكنك أن تغفري لي كل آثامي السابقة واللاحقة، هل يمكنك أن تحبي أحداً لهذا الحد؟ أن تهبيه نفسك يفعل بها ما يشاء ويشتهي؟ يقرّبك إن شاء.. وإن شاء يبعدك، يهملك.. يتخلى عنك وتبقَيْنَ تحبينه وتنتظرينه.

- أنا كذلك الآن.

- أنت تتوهمين ذلك وتدعينه.. أمام أول تجربة حقيقية ستعودين لطبيعتك.

- أنا كلي لك..

- وأنا للعدم.. للاشيء.. لستُ لي ولا لكِ.. أنا لما لا أدريه، لما أريد ولما لا أريد، أنا لا أقودني ولا أسيطر عليّ ولا أسيّرني، أنا وهم والطبيعة والبيولوجيا والقدر وما توارث، ما ظهر وما بطن، آلاف الأشياء تتعارك بداخلي عليّ..

- ألسنا جميعاً كذلك.

- ربما.. لكن درجة حساسية كل إنسان تختلف عن الآخر وأنا أكثر من هش، مركبات إحساساتي حسّاسة جداً

تتأثر بأي شيء، روحي تطاوع كل عللها، تذهب مع كل شيء لمنتهاه، أي ريح تمرّ ببالها تأخذها لهلاكها.

- لهذا أحبك.

أقتربُ منه أكثر، تعجبني لعبته التي يلعبها بالكون وأريد أن ألعبها، فأنا لا أفعلُ شيئاً في الكون سوى اللعب، ما وجدتُ إلا له أو ما وجد إلا لي، المشكلة أنه يلعب بالأشياء بشكلٍ مختلف، يلعبُ جاداً، لا أدري كيف أفسرها ولكنها هكذا، أهو هذا؟ أم أن أشيائي المبهمة تلك تقول لي إنها ليست أقل جدارة منه على لعبها بي، وبه، وبالكون، هل أريد أن أشعر أنني أستطيع، وعليّ أن أطارد مجد أو وهم القدرة ذاك، ها أنني قد بدأت اللعبة، بدأت أتحدث وأُحلل مثله، أم أن عدواه انتقلت إلي دون أن أدري وأني قد تورطتُ وانتهى الأمر، لا فالأمر لم يبدأ بعد، فأنا لي ريحي التي تتحكم بالأشياء، ومبهمي يسيرني منذ بدأ مسيرة الخلق، وما يتخذ القرارات فيّ أكبر من أن أدركه، وهي أصلاً متخذة وجاهزة حتى يحين أوانها الذي لا أعرفُ موعدهُ، كأني محروسةٌ أو مسيرةٌ أسير وعلى كل الهدى والهوى.

هي تجربةٌ... قد تتلوى روحي بها، وقد تلتاث، كما يحلو له أن يقول، تلتاثُ لكن برغبتها، وهي تعرفُ أوانها، وأوان الأشياء ودورتها أكثر مما يعرف، وهو أصلاً لا يعرف كثيراً من الأشياء البسيطة والواضحة وضوح الشمس، لذا فهو يورط نفسهُ دائماً بما لا يستطيع الخروج منه، وهو يسأل عن

أشياء لا يُسأل عنها، يسأل ويصر على السؤال، ويقف طويلاً عندها، والأشياء لا تنتظر، فتتحرك، وتتغير، ويبقى هو هناك، قابعاً في حيرته وحزنه القدري كما يدرك أو يقول، وترحلُ عيوني.. إذ لا يمكن لها ألّا ترى وهج البرق الخافت، وضوء الشمس، وألوان الربيع، وأولات المباهج.

ولا أدري لم طلب مني أن أروي الحكاية.

قلتُ له: هل تعرف مقدار ما أروي من الحكايا، هل تعرف أنني أجدر منك في ذلك، الفارق الوحيد بيننا أن كلاً منا له مفهومه الخاص والمختلف عن الرواية، لكن المشكلة أن رواياتي تلك لا توجدُ في الكتب لأنه لا يمكن لكتاب أن يحتويها.

قلتُ له: أنت تتعامل معي بلؤم، تريدني أن أروي الحكاية حتى تعرف منها كيف أراك، أو ربما تريد أن تعرفني مني، وهذا ما لن تستطيع، فأنا أكثر من لا يعرفني.

قال: هي تجربة.. أن نتقمّص الشخصيات ونعيشها، نتعامل من خلالها فعلاً، نحبها كأنها نحن، ونصوغها كأننا هي، نكونها ونعيشها بصدق مطلق، ثم نكتب ما سيحدث معنا.

قلت: أنا لا أستطيع الكتابة، ولا أريد.

قال: جرّبي، ماذا ستخسرين.

ولم أقل، كل شيء، إذ ماذا سيبقى لي.

وما يربكني دائماً أنه كان صادقاً وحميماً، ولم أكن

أستطيع البعد عنه، لم يكن ممكناً ألا أحبه، كان جميلاً أكثر مما تحتمل رغبتي وخيالي، وكان بهياً، إلقاً عالياً وعصياً.

لكن ظهور هذا الكائن بحياتي، أربك كل شيء فيّ، لامس روحي، عانقها وشتتها، أحبها واحتضنها، وكان رفيقاً وحبيباً بي وبها.

أقربهُ وأبعده.. كجمر النار.

أنا التي كل رغبات الشياطين برأسي العفن، وأنا التي بقلبي ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر...

أقربهُ لا لشيء، وأحبهُ لا لشيء إلا لأني أحبهُ.

صار يُجَنُّ حين أغيب، وكنتُ أجنُ فأغيب... فكيف يمكنُ أن نلتقي.

لي حبيبٌ، وحبيبي ليس لي... وهذا ليس حبيبي، فكيف لا ألتبس؟ كيف لي ألا أختلط؟ كيف وهو يفضح نفسه.. يمسكها، يمرّرها أمامي، رغبةً.. شهوةً.. شبقاً.. فرحاً.. حزناً.. خفةً.

كنتُ أرافق العمر نحو ما لا أدريه، كنتُ أضاحكُ العمر، أكرهه وأصادقه، وكانت علاقتي بالعمر قد تعقدت أكثر مما ينبغي، ولأن العمر قد ضحك عليّ، وأوشك أن يشمت بي، قررت أن أمارس فعل الشماتة به، وأن أسخر منه، ضحكتُ عليه، غدرته وغادرته، وفعلت به كل أفعال القهر واللايقين، وبحكم التصاقه الوحيد والحميم بي، فقد

تصادقنا بعد سلسلة من التطاحنات والتماحكات والشماتات، بعد سلسلة من الشقاوات والانكسارات والمعاتبات، بعد زمنٍ من المناجاة والدمع والقهر، بعد كل الذي كان.

كنت أختبيء وراء الخفة والمرور السهل للأشياء.

هل يمكن للعمر أو للزمن أن يُفلت أي شيء، هل يمكن لأي شيء أن يقفز خارج الزمن، كذا عقله، كذا وعيه، كذا هو.

بيني وبيني، سميته عمري، ونسبته لي، لأنني أشعر أنه خُلق لي، لا لأحدٍ ولا لشيء غيري.

لم يكن ينافسني عليه غير الكتابة أو الكآبة كما كان يحلو لي أن أسميها حين أماحكه.

حين كان يريد أن يستفزني كان يقول:

جمال امرأةٍ غبية أجمل من كلِ شيء.

ثم يضيف:

هل هنالك امرأةٌ غبية.

يصمت قليلاً ثم يتابع.

- الوعي مثل اللباس، مثل القدرة، مثل الزينة، مثل أي شيءٍ نرتديه أو ندعيه لنلاقي قبولاً عند الآخرين، والمرأة محض وجودها بغض النظر عن شكلها، إبداع وخلق، جمال مطلق، جمال مُبهم، غريب، مُثير، مستفز، أخاذ وآسر، فكيف بها إذا كانت امرأة وجميلة، الرجل يحتاج للكثير

ليقنعني بقبوله واحترامه وتقريبه والتعامل معه، هنالك متطلبات كثيرة لتقريبه والارتياح له، يحتاج الكثير ليجعلني أتخلى عن الارتياب بكل شيء فيه.

- غريبٌ أنت كيف تأمن الغامض الذي كل شيء فيه يريب، وترتاب في البين والواضح.

- هذا لأننا قادمون من عالمين مختلفين.

- كأننا لا نعرفُ بعضنا، هل أنت حقاً بهذا البعد.

- هل أنت حقاً بهذا القرب.

- كأن كلماتنا لا تأخذ المعنى نفسه.

- بل تأخذه ونأخذ عكسه معه، تأخذ كل المعنى لا جزءاً منه، فأنا لستُ مستعجلاً مثلكم، لي طرقي الخاصة في الفهم كما لي طرقي الخاصة في العشق، لهذا أحبك.

ولأكثر من هذا كنتُ أحبهُ، ولم أكن أقول له ما يحرق الروح ولا أدري لماذا، كأن كل ما كان يقوله عن المرأة والرجل صوابٌ مطلق، كأن الرجال نهار والنساء ليل، كأنهم خلقوا للعلن وخلقنا للسرّ، خلقوا للوضوح وخلقنا للغموض، هم الظاهر ونحن الباطن.

نحنُ ربّاتُ التفاصيل، ما صَغُرَ منها وما جُهل ولم يُدرك، كأننا ما لا يُدرك.

***

هو بكليته، بكل وعيه، بكل ما يحاول، ليس أكثر من طفلٍ يبحثُ عن فرحٍ صغير، صحيح أنه أغواني وأعماني، جنّني وأوجدني وأفناني.

ولأنه صادقٌ ولم يتشكل بعد، ما زال يشك ويسأل، يريد ولا يريد، ولا أحد يعرفُ أنه ما زال يبكي، بكل وعيه وحضوره، تبكيه فكرة، نقيٌ كأنهُ أول رجلٍ وجد، كأنه بلا خبرةٍ بالأشياء، وهو أكثر من خَبِرَ الأشياء وعرفها، حللها ونظمها عقوداً من المباهج المفترضة التي خُربت ولا يدري لماذا.

كان يقول إنهُ خَرِبٌ ومعبوثٌ به.. وهو العابثُ بكل شيء، وهو القدرةُ والقادرُ والعبث.

يا مُمهِلَ العبث القدري بقلبي، أما آن لهذا القلب أن يستريح.

كل ما أريده من هذا العمر أن أراه سعيداً، كيف لي أن أريحهُ أو أسعدهُ.

مُتعتي هواه، محضُ وجوده سعادتي.

وكيف يريحُ المعبوث العابث.

***

إذا رأيتُهُ أردتُهُ، وهو ليس لي، وأنا لغيره، تشتتتْ وتشظتْ أرواحنا فيما تُريد فاجتمعنا، التقينا مُحايدين، كلٌ

يُحيّدْ نفسهُ ويحاول، حاولنا أن نبقى بعيدين قدر ما نستطيع، حاولنا أكثر مما نستطيع.

صخبْتُ ذنباً وإثماً وابتعدت، لأجدهُ نائماً وديعاً في طُمأنينتي، صار حرباً بيني وبيني، صار حرباً مني عليّ، ولم يكن يفعل شيئاً، إنما قد علقتُ وتعلقتُ به، تورطتُ أكثر مما ينبغي، وتورط هو في وجودي، محضُ وجودي صار لا يكتمل ولا يتحقق إلا به أو بالتفكير فيه، صار أثقل مني عليّ، صار أثقل من نفسي وأضعف منها، أحقُّ وأجدر.

حين كنا نذهب إلى مكتبة ومقهى باريس، كان دوماً يختار المكان أمام الموقد، يشعلُ ناراً ويشعلني، يحضر مشروبه الذي يُحب، من خارج المكان، ويعطيه للنادل، ويشير له أن يقتسمه معنا، فقد كان يُحَب بسهولة من الجميع، فالكل أينما اتجهنا، يصبحون أصدقاءه بيسر وسهولة، ويحبونه فعلاً، شيء به يدخل القلب بسرعة، أو كأنّ نقاءه يفيضُ على من حوله، قليلاً وصار كل العاملين في باريس أصدقائي أيضاً، وصار المكان يُغلق حسب رغبتنا ولا يلتزم بساعةٍ محددة، نبقى وحدنا بعد أن يغادر الجميع، نسهر إلى أولات الفجر ثم نوصل صديقنا إلى بيته في الفحيص.

مؤخراً زادت حدة اكتئابي، وكنت أجلسُ في ذات المكان، على طاولة الموقد، تركني قليلاً ليجلس مع صديق، وعندما عاد وجدني أحاول أن أحبسَ دمعةً تكاد تَفِرّ مني، جلس ومرر ظهرَ اصبعه اليسرى فوق خدي، مسّ بظهر

النعومة نعومة وجهي فارتجفَ، وأزاحَ ما انسدل من شعري على وجهي، لمّهُ وأعادَ ترتيبه، كم كان حنوناً.

وكم كان ينجرّ لارتباكهِ الشديد، لأني كنت أربك نفسي وأربكه بكل شيء. . كان حريصاً عليّ، يغمرني وأنا جالسةً أمامه.. أهذي وهو يهذي بي ويُهذبني.

في نجرسكو(*) كنا نثملُ بنا.

قلتُ له: هل يمكن لي أن أحبك؟

وكان يصمت. . .

عشتُ في الوهم عمري كله، صغتهُ وصاغني، قُدتُهُ وقادني، إلى أن جاء. . . في أول لقاء حدث مصادفةً، حين دعا من كنت جالسةً معه شخصين ليجلسا معنا على ذات الطاولة، لم أكن منتبهةً لشيء، ولم أكن غارقةً بالتفكير بشيء، قدموه لي كروائي لم يُثر اهتمامي، واستغرقوا فوراً في حوار لم يخرجني من مللي، إنما جملةٌ هربت من حوارهم لتسرق سمعي، أغلقتُ عيني، رقّت لها روحي، وارتجف لها جسدي، جملةٌ تقولني باختزال:

"ما قادك مثل الوهم".

جملة كانت كافية لأخرج من كل شيء، وأعدل جلستي وأقول:

- أعد. . . أعد ما قلت.

(*) بار عتيق في جبل اللويبدة له ذاكرة.... عمان.

فأعاد،

سألته:

- لمن هذا الكلام؟

- لسيدي الشيخ.

- من سيدك؟

- "لا سيدَ إلا دمي".

- عمّن تقتبس؟

- عن شيخي.

- زدني.

لكنه صمت متذرعاً بانشغال مزيّف. جاريته في الصمت وبعد قليل اقترحت على الجميع أن نخرج للمشي في اللويبدة.. كنت أراهن أن لا أحد سيلبي دعوتي سواه.. وحدث بالضبط ما أردته، تذرعت برغبتي في المشي فقام معي وخرجنا.

دخلنا بيته العتيق الذي تفوح منه رائحة العراقة وعبق المعنى، كان لكل شيء دلالاته، كان للعتقِ ثقلٌ محبب ومفتقد، كان له كل المعنى، كان بيته كأنه هو، أحسستني قادرة الآن على فهمه أكثر، على فهمه فعلاً، بطريقة ترتيب أو فوضى الأشياء، فوضاه المنظمة، طريقة عرضه أو رميه للوحات، مجموعة التحف العتيقة، طريقة تصنيفه للكتب أو إهمالها، شكل الزجاجات الغريب والجميل، زجاجات زيتٍ فارغة يحولها لمعنى ما، جدران غرفة المكتب، خربشاته

ورسوماته على الجدران تشكل لوحةً صادقة وصادمة الوقت نفسه.

ولم يكن جوعه معلناً، لم تكن رغباته تُسيره، لم يكن يخفيها كي يحققها، لم يكن يمشي إلى الأشياء بمراحل ويوظف كل شيء لينال، لذا خفتُ من فكرةٍ أن أحاول اجتياحه، خفت من هجومي الذي خطر لي، خفت لأن احتمال رفضه وصده لي كان كبيراً، فهو لم يوصل لي أياً من الأشياء التي كنت أقرأها بسهولةٍ في الآخرين، أو ربما أنا لم أستطع القراءة فارتبكت، وبقيت هادئة، فقد وصلني أنه مختلف، وحاد، وجريء، ويعرف ما يريد، أو أنه ذاهب لأماكن أخرى، سائر باتجاه ما، غير كل الطرق التي اعتدتُ أن أرى الآخرين يسيرون فيها، فقد كان حاضراً غائباً، لذا فقد شعرت أنه ربما لا يمكنني السيطرة عليه ولا على الأمور إذا بدأتُ بجنوني، فهدأت وكفّت شياطيني وتراجعت عن رغبتها في اللعب...

ذهب ليصنع قهوتنا وترك لي أن أتجول في المكان كما يحلو لي وطلب مني أن أختار أين سنجلس، تجولت قليلاً في بيته الواسع والمريح، المستقل والذي يشعرك بالعزلة والخصوصية على الرغم من أنه موجود في وسط اللويبدة، أثناء تجوالي لمحتُ طرف شيءٍ يشي بأنه حديقة، مشيتُ باتجاهه، وعندما وصلتُ الباب الذي يفضي للحديقة فاجأتني رائحة الياسمين ذهلت، كأن عالماً آخر يطل عليّ، كأنها

حديقة قصر، مساحات ممتدة من النجيل الطبيعي المنتظم والكثيف تتخلله ممرات تفضي إلى مجموعة هائلةٍ من الأشجار المثمرة تنتهي بكم هائل من الأزهار والورود، تشكيلة لونية مذهلة، عشرات من الألوان، وكمٌ ليس قليلاً من الأشجار الحرجية تحفُ أطراف الحديقة، وأعداد ليست قليلة من شجرات الياسمين.

نزلتُ الدرجات القليلة نحو العشب الأخضر حيثُ طاولةٌ صغيرةٌ وكرسيّان، كان قد انتهى من إعداد القهوة وجاء بها نحوي وقال:

- هل نجلسُ هنا.

- إذا لم يكن لديك مانع.

- هل أعجبتك الحديقة.

- البيت كله مذهل.

-فيه عشتُ طفولتي وصباي ومراهقتي، لذا فهو المكان المفضل لي في عمان.

- هل يشبهك؟ سأفهم كثيراً من الأشياء عنك إن أجبتني.

تشاغل بصبّ القهوة ولم يجب. أكملت.

- على كلٍ. . أحد يمتلك مثل هذا البيت لا يلام ولا يُسأل إذا اعتزل، أعطني مثل هذا البيت ولا أريد أن أرى أحداً على الإطلاق.

- عزلتي فيّ "وجنتي وبستاني في صدري".

- هل هذا كلامك أم كلام شيخك.

- شيوخي كثيرون.

- وعدتني أن تقرأ لي شيئاً.

أنزل يده للطبقة السفلى من الطاولة وأخرج ورقة بنية مطوية بإهمال.

قلتُ له: إقرأ.

بدأ بتقليب الورقة، ثم قال: هذه حكم شيخي ابن عطاء الله السكندري ثم بدأ صوته بالصعود.

- "تشوُّفك إلى ما بطن فيك من العيوب، خيرٌ من تشوُّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب".

كاتي الليلي.. كلّ الوقتِ لهُ، كل الليل والليل صديق، كل ليل أطفئ كل حواسي، وأوقظ السمع له، لا أرى شيئاً، فقط أستمع، أذهب مع سيمفونية الشتاء، أحاول فهم مقولات المطر، أقسّم شكل ارتطاماته بالأشياء، همه على الأرض، انسفاحه الناعم على السفوح، نزقه على النوافذ، صخبه.. ضجره من رقة الأشياء.

أي رسالةٍ لديك لي يا سيدي المطر؟ ربُّ المطرِ يقول ونحنُ لا ندرك لا حروفه ولا كلماته، كل البلاغة في همهِ الناعم، غزله بالتراب، رقتهُ على الأرض، يداعبها حيناً، يمازحها، يماحكها بانقطاعاته وغياباته المتعمده، يناغيها،

يقول لها كل ما يريد، يطرقُ الأبواب في كل موعد، وتبقى هي دائماً مثلي على انتظار.

. . . وأنا أرضكَ أيها المطري المتعَب، هاتِ نزقك كله، غضبك، حبك، هاتِ قسوتكَ. . شهوتك، أنا التي لا يرويني شيء، كل مياه الأرض بأنهارها وبحارها ومحيطاتها، لا تروي عطش مسامةٍ في جسدي الذي كلهُ لك، أنا أرضك يا سيدي المطر، أيها المطر الليلي القادمِ دائماً في مواعيدنا التي تعرفها.

صوت المطر يتخللهُ من غير مصادفةٍ صوت ارتطامِ حصاتك الصغيرة بجداري، وصبرك وأنا عاجزة عن القول: أفهمك. . أسمعكَ. . وأحبكَ، أقدّسُ روحكَ المبتلة، محتمياً بحائط ما. . منكمشاً تحت جذع شجرةٍ ما، أفتحُ البابَ بحرص. . أطلُّ عليك ويقبّلُ وجهي أول هَمي، هذه أولُ رسائلك، أول مسّة منكَ لأطراف شفتي ووجنتي وجبيني. . هذه أولُ قبلةٍ منك. . ثم. . تحضنني الريح. أشير إليك لتقترب، ليتسنى لي أن أسحبكَ داخل البيت. . بيت لقاءاتنا السرية اقتربْ. . لأجلسك في البيت الذي أثثتهُ أنت بأشيائنا المهملة التي لا تثير انتباه أحد. . .

ثم. . . هب لي من لدنكَ بعضاً من نعمائكَ. . أدِمها عليّ، أبقِ لي دائماً شيئاً منك أقتاتهُ الهوينى أو على عجلٍ، عَجّل وافترس كل شيءٍ فيّ أيها المجنون.

ماذا أبقيت مني؟ ماذا أبقيت منك؟ ماذا أبقى برقكَ؟ ماذا أبقت نارك؟

بأي بردٍ سأشعر وقد علمتُ كل شرور الأرض. كيف لا أحبك عارياً من كل زينةٍ، من كل فكرة، من كل وهم، صادقاً وصادماً وحقيقياً ؟

كم مخيفٌ صدقك: هذا عريي فأين بياضكم؟

تأخذني معك، مع المطر وتحت المطر.. تختبئ في سواد الليل وتقف منتصباً وعارياً، تعرّيني معك.. تماحكني برغبتين، وحش الجنس في الروح ذاك، ووحش البرد القارص في الجسد.

ليلٌ ومطر.. أبهجني قدومه بلا موعدٍ كالمطر، كان يعرفُ أنني أنتظر.

أخذني إليه لعالمه.. لليل والمطر.. كان موعدنا الثاني ليلاً.. ومطراً..

كأن الهواء الذي يعابثُ كل ما حولنا، يعابثُ أرواحنا، وارتطام حبيبات المطر بالشبابيك والأسطح والبيوت يقود خطواتنا الأولى للرقص، نترنم مع إيقاع التناغم اللذيذ للريح حين يُجنُّ جُنونه في صعوده سلالم النغم... جازٌ مطلق يصعدُ وحدهُ ويحلقُ عالياً، يتمايل، يتهادى حين يمرّ من أضيق دهاليز النفس.. يصفر.. يتموسق، يهذي، يقول كل ما يعتمل في روحه، يقول كل شيء عن كل شيء، عنه، عمّا

تركته الأشياء بقلبه، عن كل ما جمعته وحملته يداه عبر عمر دورانها الموسمي، كأن الريح تتعب أو تخرجُ جزءاً ليس قليلاً من روحها، فيتهادى نغمُ عوائها وسلالم إيقاعها المجنونة، فتحنُّ هدوءاً، ليشعر السيد المطر بلون الرضا ويأخذ زمام روحها التي هدأت، ويصعد العزف، مترافقاً بدءاً مع هدوء الريح، ثم يعلو وحيداً . . . وحين ينزل مشتاقاً لملامسة الأشياء، يعلو صوته، عزفهُ، ايقاعه، جماله، ينظُم آخر ايقاع للريح مع وقع خطاه، ثم يزدان تسارع إيقاعه الفردي دعوةً للرقص، مروراً بكل الإيقاعات، يُنغمها بخلالةٍ غريبةٍ ويدفع كل ما في الجسد للحركة، للرقص، لصرخات الفرح الحيية، تُخرجُ بعنفها وعنف إيقاعها كثيراً مما تركب أو ترتب في الروح، ليخرج كل ما أصمت هناك في قيعان القلب. . ثم تكسر الضحكات الطفولية كل ما غلفها ومنعها من عادةٍ أو وعي أو خجل، لتصعد الطفولةُ مجلجلةً عبر ضحكات وكلمات لا ندري كيف تخرج، تعبيرات بدائية وهمهمات كأنها مخزنه جينياً ومتوارثه، ومتصالحة مع أصل الإنسان وأصل الطبيعة.

لم نحتمِ حين صار مزاج الجاز حاداً وصارت موسيقى الليل والريح والمطر أكثر جنوناً، شيء ما كان يدفعنا لنذهب مع العزف الى آخره، نخلع كل ما يعيق الحركة، ونواصل الرقص الوثني المجنون، عبر حركةٍ حرةٍ لا يحكمها سوى إيقاعها القادم خلقاً من ايقاع المطر وموسيقى الريح. . .

نواصل رقصنا وتكتحلُ العين والقلب بكل المطر، كلما ازداد حدةً ازددنا دوراناً رافعين رؤوسنا للأعلى، يستقبلُ مسام الوجه كل البشائر، سحرُ ارتطامه بالوجه، تلك الغبطة التي يبعثها لمس الحبيب للوجه، فلا يملك الجسد إلا القفز والحركة والدوران، نفرد ذراعينا لنرقص زوربا إذا جاد علينا العازفان وفاجآنا بذات اللحن لنفرح...

نرقصُ... نسمع... ونرى أننا وحدنا في الكون، نرانا وحدنا، والسماء لا ترى من تحاور غيرنا.

ترتاح الريح، وتنساب الموسيقى هدوءاً، ليصعد هو بالغناء.

يا نسيم الريح قولي للرشا
لم يزدني الوِردُ إلا عطشا
لي حبيب حبهُ وسطَ الحشا
إن يشا يمشي على خدي مشا
روحهُ روحي وروحي روحهُ
إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشا

نلتاثُ بنا رقصاً حراً ثم يعودُ يناجي شيوخ رقصهِ، وكأنه كان يراها تلك الرقصات التي كان يقرأ أن شيوخه يرقصونها، كأنه كان يراهم في فنائهم فيه، كأنه كان يراهم في لحظات الوصول أو الحلول، كان يشعر كأنه كان يُطالب أو يُفرض عليه أو عليهم قول كل شيء بعبارةٍ واحده فتضيق العبارة عليه حتى لتكاد تخنقه وترهق روحه، فتحاول خروجها وتتوق إليه

تتمناه ولا تصل، فلا تجد وسيلةً كي تشعره بما بها إلا أن تدفعه للرقص، علّه يحسّ به ليحس بها.... كان يحس بهم، كان يراهم يرنمون أرواحهم لتقود أولات اللحن والصمت إلا من إيقاعها والموسيقى التي لا تسمع إلا بالقلب، يراهم حين تستجيب أجسادهم للترانيم وتبدأ أول تأتآت حركاتها الاولى ثم تكسر الحواجز والفواصل وتبدأ الأشياء ترابطها العجيب، يحسون لذائذ الحركة، متعتها، كمّ المتعةِ المتراكم في التعب وكلما زاد التعب زاد المتعة، ومتى ما وصلوا حدود الإجهاد، قاربوا قمم المتع، شارفوا قمم التحقق والوجود، وردوا حياض الفناء، رأوه، فتنشطّ الروح إذ تراها هناك، ترى بيتها وأرضها وطفولاتها التي اغتربت عنها منذ حلت في أول جسد، فتجنّ تريد الوصول إلى هناك، وتحبه، ترى فناءها فيه، لأنه أول خطوةٍ لاستعادة نفسها والتصاقها بها وبكل ما كانت وسوف تكون، تحاول فناءها وتحاوره لكن أمرها ليس بيدها، ليس هي من يتخذ القرار........

وحين كان جسدها يخذلها، كانت تغضب عليه، تهمله، تحرمه من أي متعةٍ يطلبها أو من وثير الملابس، تجوّعه، تقسره على السهر وعلى تمارين تلجمه، لتعلو هي أنى شاءت..... كان يراهم كل شيوخه بكل طقوسهم، يرقص ويرى رقصهم، يتخيل حركتهم فيتبعها، يسمع ايقاع قلوبهم، بحّة أصواتهم وهي تحاول أن توصل واحداً بالألف مما في

القلوب يرى إيقاع حركاتهم، دورانهم الراقص الهادىء، متماشياً مع إيقاعٍ مبهمٍ فيهم، تتسارع نبضات القلب يفتحون أذرعهم للكون لأصلِ الكون، له، يتجلى لكل شيء ويكون فيه ويغنون:

"كان الله ولا شيء معه وهو اللآن على ما عليه كان":

فيرغبون فناءهم وفناء كل ما هو سوى، ويدورون، يدورون حتى يسكرهم خمر الوجد وتفنيهم رقةُ الوصول، كان يراهم، ويسمعهم ويتبعهم في كل شيء، كأنه أحس بأنهم ينظرون اليه باطراف عيونهم، أحس أنّ عليه الدور، لم يطلب منه أحدٌ شيئاً إنما أحس، أنهم يرغبون أن ينشد أو يقول، فجاء صوته رائقاً في البدء، ثم على صعوداً.

فَجَرى دمعيَ مثلَ المطرِ... فَجرى دمعيَ مثلَ المطرِ
قال يا مخلوق كوّنتكَ من دمعةٍ سرٌ غرّدت في بصري
أنا لاشيئيتي خمري فلا تسكر بغيري
صحتُ يا مولايَ كأسي كُسرت في حانةِ الأمسِ
وسالت الخمرةُ والدمُ والدنيا على وجهي.

وكأنه كان طائراً وحده فوق السحاب أو كأنه عاد فعلاً لأزمان شيوخ رؤاه، فقد كان يتصرف كأنه فعلاً بينهم، حتى أنه كان حين يلفت أو يدور كان يراعي حركة الثياب التي لا يرتديها، وأحياناً كان ينقر الرق الذي لا يحمله، وحيناً يراقب أو يراقص أحداً ما، غير موجود، يقترب منه، يدعوه ويفسح له مجالاً للرقص، يُقرئهُ ويستمع اليه، يعانقه، يجثو على

ركبتيه ويقرأ له مقطعاً ما من أشعارهم، كانوا جميعاً على مثل حاله.

تفنيهم رقة الوصول ويغيم الجسد في متحه ومناه، فيكون الكونُ خمراً، ويصير الوجود قدحاً.

يسقط الأزمان بتواصل معهم عبر الرقص واقتيات البرد، يتواصل عبر فنائه فيه، ويصعدُ نحو رؤاه يغيم أو يغيب، ليتحد صوته مع صوتهم.

رقَّ الـزجـاجُ وراقـت الـخـمـرُ
فـتـشـابـهـا وتـشـاكـل الأمـرُ
فـكـأنـمـا خـمـرٌ ولا قـدحٌ
وكـأنـمـا قـدحٌ ولا خـمـرُ

يبقى متعلقاً بحبات المطر وأطراف الريح، حتى تهدأ صهوةُ الجاز أو يهدأ المطر، ينسابُ مطراً خالصاً من عينيه، تختلط دموعهُ بالمطر وهو يغني، ينشُجُ، يرقص ويقتبس، يتلوى جسدهُ في أحضان الريح، تحركه كيفما شاءت، يختم رقصهُ بمخاطيةٍ ودمعتين.

يا ويح روحي من روحي فوا أسفي
علـيّ مـنـي فـإنـي أصـلُ بـلـوائـي

صارت يداه تعبثان بكلي.. وكلماتي تخاطبُ جسده المجنون الذي تحركهُ أشياء لا أدريها.

الليل يهبنا بعض الوقت، والمطر يُحضر لنا شيئاً من

النبيذ، كنا نقتات البرد ونطربُ لصوت الريح يغني حُزننا حيناً، ويطربُنا حينا...

وحين ترافقا معاً، صوتُ المطر، تلفهُ كخلفيةٍ موسيقيةٍ ترنحات الريح، نغماتهِ... لم يعد الصحو يعني لي إلا الهباء، والوقت الذي كنت أبدده بأي شيء بانتظاره.

اكتمل الليل بالمطر.. واكتحلت عيناي بالليل والليل بالمطر.. ازدانت بباهج روحي وصعدت غبطتها.. دبت البهجةُ في كل شيء فيَّ جسداً وروحاً، بدأت روحي تُفلتُ من ضوابطها، وتخرجُ خارج الجسد والزمان والمكان، تراقصُ على هَمي كلماته، وهو يغمرني بليله ومطره ورؤاه، الآن وهنا فقط كانت الحياة بكل تجليتها وتألقاتها، بكل بهجتها.

وصل ثامن

أصحو مربكاً في آخر الليل... هل أغتسلُ علّها تتطهر روحي؟..أصلّي وأقومُ الليل وأدعو... أناجي روح الأشياء... كُنهها وحقيقتها؟

أم أفتحُ جزء الخزانة السفلي، وأخرجُ زجاجة فودكا، وأصب لها كأساً، علّها تهتدي لهداها.

من نثار الليل... من نزولِهِ مُطبقاً ومهيمناً.. من غطائه الكلي الذي يطغى على كل شيء.. من صمته المطبق الذي يحيط بروحي ورأسي اللذين يضجانِ بكل شيء، من كل الأصوات التي يريدُ كل منها أن يأخذني لشيء... جاء صوتهُ الذي خلتهُ بدايةً صوتي، خالفني بدايةً كعادتي معي، ثم حين صار يغالي ويبتعد ويختلف، اكتشفتُ أن طيفهُ كان يقف خلفي ويهمس من وراء أذني ويقول ما يقول، وأنه ليس أنا هذا الذي يحاورني ويحيّرني، كان كأنه داخلي وخارجي في الآن نفسه.

تعال هناك.. تلك هي أرضك لترى وتروي.. اتركهم جميعاً وتعال معي لترى حقيقة الأشياء، هناك فيك جُلّ القدرات.. سر الأسرار. وكل أشيائك هنا وُجدت لتمنعك من الوصول إليك.. إلى حقيقتك وحقيقة الأشياء، كل ما حولك وهم يعميك..

'متى ما أوحشك من خلقه فاعلم أنه سيفتح لك باب الأنس به'.

تعال إليك لا لكي تعود إليهم فائزاً أو خاسراً، شرط ذهابك إليك ألّا تعود تريد شيئاً، ألم تكن أول جملك 'لم أعد أريد شيئاً..'؟ هذه الجملة أيها الأحمق هي من أحضرني إليك، 'ومن أشرقت بدايته، أشرقت نهايته'. ألم تكن تعنيها؟ ألم تختر أنت عزلتك؟

ضعفك قوتك.. غيابك حضورك، فناؤك خلودك، ألم تفهم لغاية الآن؟ 'هو لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف من غلبة الهوى عليك'.

- يا سيدي 'إن البلاء والهوى والشهوة معجونة بطين ابن آدم'.

- 'كيف تُخرَق لك العوائد وأنت لم تَخرِق من نفسك العوائد'. 'إن أردت ورود المواهب عليك، صحّح الفقر والفاقة لديك، إنما الصدقات للفقراء'، 'تحقق بأوصافك

يمدك بأوصافه، تحقق بِذُلّكَ يمدك بعزّه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوّته".

– يا سيدي "فؤادي مملوءٌ بالخمر وبالحزن" ولم تدركني لغاية الآن كأنك لا تعلم، "أوَلست المنقذ؟ أوَلست رفيق المتسخين"؟

– "ورود الفاقات أعياد المريدين، ربما وجدت من المزيد في الفاقات، ما لم تجده في الصوم والصلاة "فرّغ قلبك من الأغيار، بملأه بالمعرفة والأسرار، وليقلّ ما تفرح به، يقلّ ما تحزن عليه"، "إنما أجرى الأذى على أيديهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه بشيء".

عبقرية الخلق الفذّةُ، في الصراع المستمر، في التناقض... في لمعان الانتصار حين تبوح بوادره، في الانكسار المستمر وفي الإياب الأبدي، في قدرة الاقتراب من الأسباب، قدرة الوقوف أمام نارها، جرأة أن لا نُغلق العينين وأن نبقى محدقين بها كي لا تغيب أو تُغيّبنا.

جدارة الوقوف على أرضها، قدرة أن ننزع من أنفسنا كل ما هو سوى، أن نقترب من حدود المطلق، نتوهمه، نتخيله، نراه، ليس إلا بعد أن ننزع من نفسنا كل ما سواه.

الوحدةُ. أول الطريق، الاغتراب. أساسه، غربتنا عنا

زاده المستمر، بحثنا المهلك عما لا يُدرك، انسلاخنا اللامدرك واللامفهوم عن كل ما كان يجذبنا أو يمتعنا، انفلاتنا منا وهروبنا القسري إلينا، عشقنا وكرهنا لذواتنا، مع بقاء السؤال يدور ويدوخنا... هذه أول طريق القدرة.

دع كل المتوهم من القدرات، دع كل الذي زيّنوه واذهب إلى الأصل، أصل الأشياء، إلى المطلق فيك، إلى الأرض الحقيقة، الحياة الحقيقة بلا زينتهم، إنزع عن الأشياء زينتها، خذ الجوهر منها، تسلل إليه، سرب إليه نارك، أنفُخْ في قيعان رماده... لا لن يضيرك كم من جبال الرماد ستحفر بلهاثك بحثاً عن أصل النار، تحمّل اختناقك، هب أنك لن تختنق، أنفُخْ كل ما في روحك ورأسك وقلبك، أخرجهُ دفعةً واحدة، لا تلتقط أنفاسك لأنها لن تسقط، ولن ينتهي زمن نَفَسك ونَفخك، لأن ما في الروح والقلب لن يخرجَ بزمنٍ واحد، ولأن قوانينهم لا تنطبق عليك في هذه الأرض الحقيقة، المهم أن لا تؤمن بأيٍ من قوانينهم.

آن لك أن تخرج من إسارِ كل قوانينهم، قد تفشل في المرةِ الأولى، ولكن كن عنيداً كقبحهم، واصل إصرارك ولا تلتفت. لم يَعُدْ أمامك إلا الذهاب إلى دنيا القدرات، إنك منذور لهذه الأرض. لهذه القدرة، وانسَ كل ما سوى القدرة، أغمض عينيك وواصل.. واستمر.. استمر لأن الأشياء تشتاق روحك.

لم يعد إلا الذهاب إلى دنيا القدرة، عالم القدرات الكامنة، لم يعد أمامك إلا الهرب إليها أو اقتحامها.. كل ما ترى أو تعيش محض وهم، فلماذا تضيع هذا العمر في ما يشبه الوهم، في ما تجليه وتعبيراته العليا وهم، لِم لا تخرج من الوهم المشوّه إلى الوهم الأجدر والأكفأ.. هناك أرض التجليات، أرض الحقيقة والمخيلةِ الخصبة، أرض التحقق والقدرات، الأرض التي تغيب عنها كل قوانين الطبيعة، أرض الروح بكل عظمتها وقدراتها غير المحدودة، أرض الصعود المستمر، أرض الألق والشفافية، أرض الكثافة والحضور، أرض النبوءات والمسرات، أرض العطايا والكرامات.

انزع عنك كل متوهمك واتبعني، أترك عنك أوهامهم واذهب إليك.. إلى وحدتك الأولى، اذهب إلى وهمك أنت لا وهم الآخرين، لا تخجل منهم، أنت أكثر من يعرف أنهم جميعاً حمقى، أغبياء ودجالون.

اذهب إلى وهمك الأوحد وامضِ بكليتك في كل ما يمكن أن يُغنِيَك عنهم، أدخلْ في وهمك عن المرض النفسي واوهمهم مرضك، إختر عزلتك ولا تبررها، دع لهم كل التقولات وتفرّد وحدك بالأفعال، اذهب معي نحو شيوخنا الأوائل.. لنذهب معاً نحو من نجا، علنا ننجو، أنت تعرف

فيمَ يحاولون أن يحصروك ويقيدوك ويفسدوك، كل ما يمكن أن يقدموه لك ليس أكثر من كذبةٍ ووهم.

جرّد الأشياء من زينتها تعُدْ فراغاً مطلقاً ووهماً قبيحاً، دعنا نحاول أن نعطي للأشياء حقيقتها لنذهب إلى عالمٍ آخر، سيقولون خرافة، ليس مهماً، دعهم يذهبون لعالمهم الذي يزعمون أنه الحقيقي والذي تعرفه جيداً، لن تستطيع أن تقنعهم بشيء، دع الحقيقة لهم واركب معي أجنحة الوهم والخيال.

أنت الذي لا تستطيع إلا أن تكون شفافاً وعطياً، كنت دائماً تخسر معهم، أوقف خساراتك واستجمع جساراتك وقرر أن تحارب إدمانك على حُبهم، أحبب نفسك قليلاً، صُغ وهمك، احترفه، شذبه، وانحته جميلاً، راكمه، ربّه، اصقل حوافه ليكون صلداً جميلاً، ته بهِ كما تهتَ بالإنسان، أنسنه وارعَهُ، كَبّرهُ واحمهِ.

فوجئتُ بسيدي يصعدُ راقصاً ويغني، يفردُ ذراعيهِ ويدور ثم يذوي هادئاً في حبور..

– "الفقر فخري".

أردتُ أن أعرّفهُ على نفسي، أن أشكو لهُ، أن أقول له بعض ما في القلب.

فوجئتُ بإيماءةِ يدهِ النورانيةِ وبصوتهِ:

- "أغلق عليك بابك، واستغفر لذنبك وابكِ على خطيئتكَ وليسعك بيتك".

- لكن يا سيدي..

- ابحث في نفسك، انزع عن ناظريك كل ما ترى ستري... لا تتبع ولا تقدّس إلا سرّ روحك.

عالمي صومعتي، أعتكفُ به كيفما أريد، أنطلقُ به كيفما أريد، أعتزل الناس أحياناً بانحشاري بين زحامهم، أتعبدُ في حانةٍ أو مرقصٍ ليلي، وأبكي على حوافِ الكنائس والمساجد.

وأحافظُ على نفسي وأحصّنها قربَ جمر المفاتن واشتعالات النساء، لي طرقي الخاصةُ في الفهم.

- أنت قلت يا سيدي: فَلنَلوِ عُنق الأشياء قليلاً... حسناً.. سالوي عنق كل شيء علّي ارى.

- اسحب منطقكَ قليلاً خارج مساراته القسريةِ والمرسومةِ مسبقاً، كل الطرق التي مروا بها وجاءت منها النصائح، والحلول التي لم تشفِ غلاً ولا غليلاً، لم تبلسم اي جرحٍ، كانت تحاول وتهرب، تحاول وتفشل، تحاول وتجبُن، تحاول وتعود.

- أما أنا فسأذهب دون عودة لأني إذا وجدتُ حلاً ساعانقهُ وسأبقى هناك، لن أعود.

- أي بني كَثّف غُبار روحك.. جَمّعه واخرج من سجن الجسد.

- يا سيدي: الحياة أقصر وأكبر من أن أضيعها بالكتابةِ، وأضيق من خُرمِ إبرةٍ، وأوسع من أن يحتويها كتاب.

- من قال لك إنني اريدُ أن تكتب، لا أريد منك إلا أن تكف عن الكتابة، تكُف عن إزهاق روحك عبثاً... لن يقرؤوك، وإن قرؤوك لن يفهموك، وإن فهموك سيؤذوك، دعكَ منهم، ولا تلتفت إلا لما هو فيك "تَشَوُّفُكَ إلى ما بطن فيك من العيوب، خيرٌ من تشوُّفك ما حجب عنك من الغيوب".

سبحانَ سُنَنِك... سُبحان قوانين الخلق سُبحانك يا رب كل التفاصيل.

- مولايَ كيف يكونُ فرحي بالمصيبةِ مثلَ فرحي بالخير.

- "من عَمِلَ بِما يعلم.... آتاه الله عِلم ما لا يعلم".

أي بني إن الأرض بكل ما فيها وعليها لا تصلح أن تكون أعطية الربِ لك.

- أغلق عينيك... تعلم أن لا ترى كل ما هو سوى.

- مولاي كل الأرض بما عليها سوى.

- أنت إذن لا نرى... أغمض عينيك ترَ "ربما وردت

عليك الأنوار، فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت".

- أغمضُ عيني لأرى، ماذا سأرى؟

- ترى ما الذي يجرّك مثل حمارٍ إلى كل شيء، ما الذي يخضعك لكل القوانين، ما الذي يجعلك عبداً للأشياء ولتوافه كثيرة، كل الصغائر تنمو عندما تراها، تكبر عندما تقف عندها، تحتَلُّكَ عندما تفكر فيها - كما لا يمكنكَ أن تسير بقدمٍ واحدةٍ، لا يمكنك أن ترى بالبصر وحده دون البصيرة. كُفّ عن تعطيل بصيرتك وقدراتها الكامنةِ، كُفّ عن إهمالها، لماذا تترك نفسك تنقادُ إلى هيمنة البصر الضيقةِ والمحدودةِ؟

ما الذي يُحرك دواخلك دائماً، ما الذي يوقظ جنون غرائزك، ما الذي يُسيلُ لُعاب مُجونك. جرّب أن تكف الأشياء عن استثارتك، أغلق عينيك لترى ما تحت السطح، ما خلف المشهد، ما وراء الصورة؟ هب أن كل الأشياء التي تراها وتثيرك غير موجودة، هب أنك لا تراها، أنها غير موجودة أصلاً.. يكُفُّ الذهن العبقري، مِنّةُ الله العظمى وأغلى عطاياه، عن الانغراس في التوافه...

شغّل هذا الذهن بطاقته القصوى سعياً وراءَ القدرةِ، فَرّغهُ للبحثِ عن المطلق فيك وفي الأشياء، دعنا نغيّر زاوية

المسار البهيمي، عَلّنا نرتقي قليلاً أعلى مما هو مقدر للحيوانات.

لا تبصر كل ما يلهيك أو يأخذك أو يشغلك، انزع نفسك من كل طغياناتهم، ألق عنك كل أوزارهم... جرّب.. لن تخسر شيئاً.

أفق غداً دون أن تفيق، لا بأس من احتيالٍ صغير بداية الأمر، أفق صباحاً ولا تفتح عينيك، صُم عن البصر منذ طلوع الشمس وحتى المغيب، جرّب ذلك وانظر إلى أين سيصل بك ذهنك، جرّب سترى كم ستتوقدُ روحك، واصبر واصطبر عليها إذا كنت تريد، هل تريد القدرةَ حقاً ؟.... فافعل إذن.

كل عذابٍ يهون أمام العطاء، وإن الأرض وما عليها لا تستحق أن تكون مكافأةً لمن أخلص واتقى، إن الوعد كبير والعمر صغير فعلام تندم أيها العبد الفقير؟

ثم لا تسمع إلا صوت دماغك.. فكّر أنت بصوتٍ عالٍ وزِد بأن لا تفكر بغير ما تفكر، لا تسمع إلا صوتك وأنت تفكر.

واسمع فقط ما تفكّرُ فيه.. تراه.

حيّد سمعك وبصرك يَخْمِد أتون ذهنك وتبدأ بشارة القدرة ونور العطايا، لا تسمع كل ما يقولون، لا تبصر كل ما يزينون.. يصل الحق وتنزع السوى.

اربأ بنفسك، اربأ بروحك وجسدك عن كل الصغائر، ارتقِ.. وكن علواً كما يليقُ بكل هذا الجمال، ولا ترضَ بما دون الجلال.

أوقد نار الروح المخبأ فيك واصمت، لا تكلم الناس... ولا رمزا، دعهم بكل ما فيهم، دعهم يلهمهم الأمل. دع خصوصاً ما تراه جميلاً ونقياً وبريئاً، فدائماً كانت تزلّ القدم عند هذه الجمالات، دائماً كانوا يزوّقون أنفسهم وأشياءهم لتكون شركاً للروح، لا تكرر غباءاتك وغيّكَ القديم وتقترب من أيٍ منهم.

تذكر دائماً... أن الوحدةَ زاد الطريق، والاغتراب أساسه.

لقد حذّرتك قبل البدايةِ.. إن بدأت وغادرتَ معي عالمَك هذا، لا يمكنك الرجوع اليه، حتى وإن لم تستطع الوصول. كثيرون داخوا وضاعوا في الطريق، لم يستطيعوا الوصول ولم يستطيعوا العودة، ولا أحد يفهم أو يعرف ماذا حصل لهم.

فاستجمع نفسك واحزم أمرك وخذ قرارك، إذا كنت متردداً لا تذهب.

قررت.. مرحباً بك.. اصعد معي.. حلّق.. تجلَّ..غنِّ معي.. أو فلأغنِّ معك ما تحب.

يا لغبطةِ روحك، ويا لهذا الوجه الوضاء كيف امتلأ بالبشر، ويا لنورانيةِ روحك كأنها مقطرةٌ للوعي، ومنذورة للقدرةِ، يا لعطايا الرب أكاد أراها منذ الآن تتجلى وتحلى عليك وبك.

الآن غنّ واغوِ.. تمتم متعك تتحقق.. صِرتَ أصل الغوايةِ فَارْوِ واغوِ واهذِ بما ترى.

ترفّع... ترتفع.. "ما قادك مثلُ الوهم".. ترفّع، قف واعترض.

كل ما حولك وهمٌ إلى زوال.

***

- يا سيدي، أناي تغلبني، أنا لستُ قادراً على جمعي، كلهم يشتّتونني، كلُّ شيءٍ يأخذُ مني جزءاً، لكلٍ حظٌ فيّ إلا أنا، أنا لستُ لي يا سيدي.

هل أنا من يتحدث إليك الآن، أم وهمي في ما أرغب؟ ولماذا أحدثك؟ ماذا أريد منك؟

هل أنا الذي كنت وعشتُ سابقاً، هل أنا من فعل كل ذلك.. لستُ أنا يا سيدي، آخر فيّ نعل كل ذلك، آخر أخافُ منه هو من فعل كل ذلك يا سيدي، يقودُني وأخاف منه، أرجوك أوقفه يا سيدي، أوقفهم جميعاً.. كل الذين

سكنوني، أضلّوا روحي واعتلوا عقلي وأنطقوني وفعّلوني ما لا أريد، أوقفهم ولا تدعهم يسيطرون عليّ مرةً أخرى.

أنا يا سيدي هذه اللحظات المنسابة هروباً مع الزمن ولا يمكننا القبض عليها، أنا الآن يا سيدي بكلِ غرورهِ المهيمن والمتجدد، بكل صفاقته وهيمنته على كل شيء، أنا لا أستند للماضي، لما كان.. ولا حتى البارحةَ لأعرفني، أنا الآن الذي لا يمكن القبض عليه، كل ما قلته أو فعلته أو كنته سابقاً ليس أنا، وكل ما قد أقوله أو أفعله الآن قد لا يبقى معي لغدٍ، قد أفيق على غيره، أكتشف خدعَهُ وضلاله.. أنا ضليل دائماً يا سيدي.

لا يمكن القبض عليّ.. لا تكن مثلهم يا سيدي وتحاسبني على ما كان... أنا هو الآن.

***

بخورك غمامات البارات، ضبابات العبق المُتعَب في بارات الفقراء، عِطركَ رائحةُ الأرض، أول تشربها أو "تشردها" بأول همّي.

- أخرج كل ما في رأسك من رغباتٍ وحماقات، أخرج حتى القذارات التي تخجل منها، ضعها جميعاً على الطاولة، أو أدخلني في رأسك الصغير، دعني أعرف كل ما يدور في رأسك.

- المرأةُ يا سيدي

والمرأةُ يا سيدي

والمرأةُ يا سيدي

- أيها المسكين كيف تطلبُ ما لا.......

"إن البلاء والهوى والشهوة معجونة بطينة ابن آدم".

لا فكاك ولا انفكاك.

لو أن الأمر يُحلّ بامرأةٍ، لو بمئةٍ، لو بشهرٍ لو بسنة، أنت الذي يعرف أن لا فكاك ولا انفكاك، فإلام تبقى هناك؟.. أنت تعرف.. ولكن اذهبْ أكثر، بالغْ، كُن غَبَشَكَ الذهنيّ وشططك السلوكي، افعل أكثر مما يتراءى لك شهراً أو عاماً.. جنون ومجون، لك كل ما تريد.

- أي غبطةٍ ولذاذةٍ للروح حين يتواقحُ فُحشها ويبدأُ شيطانُ التفاصيل في فك أول أزرار الخيال، أول خيال، أول البدء، أول الأرض التي تبثُ فيها كل الشياطين.

وتصعدُ، تصعد، تصعدُ.. نلعبُ يا سيدي نلعبُ، نلعبُ، نلعب، نثملُ يا سيدي نتوه، نه يا قلب ويا أيتها الروح اصطهجي وتراقصي، وغبّي من غيكِ المغبون.. هذا لكِ، هذا زمنكِ، هذا شهركِ

- فلتبتدئ الأشياء ولتذهب لمنتهاها، هذا أوان حقيقتها لا رؤاها.

تأخذني يا سيدي إلى أماكن لم يكن من الممكن أن أعرفها، وترميني هناك، تضعني تماماً في زاوية الطاولة، أو طاولة الزاوية التي زينت زاويتها بصور لإثني عشر كاتباً ايرلندياً، وهؤلاء السادةِ يا سيدي.

- أنت هنا ليس لأجلهم.. وجودهم هنا مصادفة، أنت هنا لأجلك.

- لكنهم.

وأشرتَ لأولات الرقص، لبدايات الدعوات، لخَفرِ أول الموسيقى، حين تطلبُ استعداداً للحراك الجسدي المكتنز والمكنون الرشيق في الجسدِ، أولاتِ إفاقته على موسيقى ما يُحبها أو تقولهُ....

كُنَّ في ما قبل التمايل، في حيرةِ اختيار المناسب والانسجام والتناغم، كن حركةَ نغم، قبل الدخول في الرقص، كُنَّ قد غادرن للتوِ نعومةَ وسلاسةَ الخمر.. أولات غمامات التبغ والذهن والصوتِ، كُن في أولات الصدى الذي يتردد فيك قبل انفلاتك من عِقالات الحرج الغبي.

واللغةُ فتنةٌ وغواية، تزداد فتنتها وغوايتها حين يكون المعنى حاداً وقوياً واضحاً وجريئاً، هادئاً ورقيقاً... واضحاً كما جُملتُها حين اقتربت من الطاولة.

كانت انثناءاتها تغادر آخر معاقل التكرار المتواصل

للحركة اليومية المتوقعة والمملة والممارسة لآلاف المرات، كان الجسد يودع كل بؤس الاضطرار.

ومع الرقص يا سيدي تتداخل كل اللغات.. تظل الفتنة متصاعدةً، ربما أن للرقص لغةً، ربما للخنوع لغةً، وللذل لغته أيضاً، وللاضطرار لغاتٍ عدة نعيش بها وأنت يا سيدي أكثر من يعرفها.

في الرقص يا سيدي يخرجُ طفلنا منا، يتحرر... كأن طفولة الجسد تتحرر.. كأن طفولة الروح تتحرر.

كان الرقص يعيدنا لأصل فينا نسيناه.. لفرح فينا نسيناه.. لجسد فينا نسيناه.. ولقد وجدتُ في الرقص ما لم أجدهُ في أي شيء سواه.

- قلتِ بعينيك شيئاً رائعاً وبليغاً، أحب أن أسمعه بصمتٍ مرتفع.

كان جسدي يتحرك لا إرادياً وراء جسدها، لا لشيء إلا لكي يكتمل الحراكان في حركةٍ واحدة، ويلتقيا في وحدةٍ ما، صحيح أن الموسيقى كانت تقود وتقول، وهي تواصل وأنا أواصل وأصل بها ومعها ويدونها.

أخذتني من يدي وذهبنا إلى طاولة الزاوية، اختبأنا بها أو أخرجنا الزاوية، أخرجناها من حدتها وفتحنا قوائمها قليلاً.. وأكملنا حواراتنا السابقة وبلغاتٍ عدة، كان أجملها

لغة الضوء والعتمة، كان حين ينظر إلينا أحد أو نشعر أنه سينظر إلينا بعد قليل، وأنه يفكر بنا، نكون أكثر جرأة وفُحشاً وننظر إليه ونضحك، نواصل النظر والضحك والفعل، حتى يضطر أن ينظر إلى شيء آخر، كنا نستمر بالنظر إليه قليلاً ثم نغير هدفنا، كان عداؤنا فذاً.

***

يُعطيك فقط حين لا تطلب، حين تكف الأشياء بكل قباحتها عن أن تكون هي السبب في طلبك، وأنت تعيش الآن في محض القبح، وفي عمقِ كل ما يعدكَ عنه.

شرط العطايا... صدق النوايا..

ما دام قلبك معلقاً بهم، بكل ما هو سواه، فلن تراه.

حين تصير المنعةُ محضَ التأمل في الوجود، وفك كل أسرار تقلباته، مكروناته، وهباته، حين يصير التفكير هو الهاجس الوحيد، حين تكُفُّ الروح عن محاولاتها الحمقاء في الفعل أو في التدخل، حين يكفُّ نثارُ المتعةِ المبثوث منذ الأزل في كل دروب الحياة عن التعلق بروحك، يكفُّ عن غوايتك، حين تكفُّ الأشياء عن جذبك وعن قدرتها على التحكم بك وأخذك منك، حين تكون أنت أنت.. حين لا يأخذك شيطان التفاصيل.. حين تنزع شيطانك منك.. تستحق.. قبلها لا تحاول.

- يا سيدي أنا كلي لك، ولكنْ للشيطان جزء من روحي، يقاتل من أجله ويراهن عليه، يا سيدي لو لم يمزقني ما وصلتني. يا سيدي كيف للمجبول على الشهوةِ أن يرى تجليات الجمال وتألق دروب الفتنةِ وأن لا . . .

- ما أنت بشيءٍ يا سيدي.. ما أنت بشيء.

هل كوّنتك التفاصيل؟... الشيطان سيد التفاصيل يا سيدي.

ستقول هذه لغة من لا يرى.

كيف لي يا سيدي.. كيف لي؟

***

انسحبنا من الكون القاحل، إلى ذواتنا المتمردة. هل كان حقاً قاحلاً؟

انسحبنا، نلمّنا قليلاً، نستوعب ما يحدثُ حولنا، ثم عدنا.

انسحبنا، لنكتشف أننا بانسحابنا تركنا للصفاقةِ أن تحتل وتعتلي كل شيء، تحتل كل الفضاءات، أن تقود، تقودنا وتطالبنا بتفاهاتها.

ماذا لو عدنا، ألا يصلح كل ما حدث ليكون البداية؟

هل غادرنا أو غادرتنا؟

يا اسكندريه.. تفاحةٌ للبحر. باريس ميلر وسيمون

وكامو.. بغداد.. بغداد.. والقرن الرابع للهجرة.. وجان جينيه..

***

قبل أن ننسحب كان نوعاً من الرضى.. شيء يشبه التحقق في الأفول، أن تكون مكتملاً، موجوداً ومتحققاً، كائناً بكليتك، بكلية التفاصيل، لكنك تعرفُ أن شيئاً ما حدث ورماك في قيعان الهزيمة.

- ما رأيك أن نعود لنلمّ بقايا الندامى، نلمّ أواخر المنكسرين والمهمشين، كانوا وما زالوا وسيبقون.

ممزقٌ بين نارين، كلما رأيتك يا سيدي، كلما خطرتَ ببالي، يسير بي شيءٌ إليك، أصير ملك يديك...

قبل وصولي أو وصولك، منذ اللحظة التي شعرتُ بك، بوجودك أو غيابك، بافتقادي إليك.

- أعداؤك: الدنيا وسلاحها الخَلق... وسجنها العزلة

الشيطان وسلاحهُ الشبع... وسجنه الجوع

والهوى وسلاحهُ الكلام... وسجنهُ الصمت

"النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمت

أن السلامة فيها تركُ ما فيها

والنفسُ تعلمُ أني لا أهادنها

ولستُ أرشدُ إلا حين أعصيها".

ماءٌ هو الماء يا سيدي، وليس كل هذا السراب.

***

- أنا لستُ لي ولا أدري لمن.
- ألم تدرك لغاية الآن؟
- يا سيدي...
- ألم تقل في دعاء الأربعين؟.. ارجع لدعاء الأربعين.
- مُتعبٌ يا سيدي.
- طفلٌ الأربعين.. (وانشرح وجهه بالبشر، أضاء بالابتسام).. روحك شريفةٌ وجسدك قيدٌ، يعميك التوق، ألا فلتهدأ.. استمتعتَ بخلائقك كما استمتعوا بخلائقهم، وخضتَ كالذي خاضوا.. وتهتَ كالذي تاهوا، فمتى تعود؟
- إلى أين يا سيدي؟
- إليك.. كل الكون كامنٌ فيك.
- ضيعتني يا سيدي.
- كي تجدك.
- أنا لا أستحق.
- كثيرون كذلك قالوا كذلك.
- فهل وصلوا؟
- وصلوا لما وصلت الآن.

- وبعدها؟
- لا يعلمُ غيبها، لكل واحدٍ منهم دنيا.
- دنيا وعليا.
- وعليا.

***

أتحسس بشائر الأربعين.. على حد العمر تماماً، تتجاذبني قوتان بكامل عنفهما وتجلياتهما، كامل طفولتي وكامل كهولتي تمزقانني، فأتلاعب مع العمر ومعهما.. أتلوى بينهما.. تشظيني الطفولات يوماً وتكتبني الرجولة حيناً.

أحاولُ انلماماً مستحيلاً.. أحاول أن أتوحد مع نفسي وفكري وعقلي.. دنياي.

أنظر حولي.. في الأربعين تماماً يتجلى قهر الرجال.

وأنا المقهور من صبح الخليقة، أرى تفاصيل الذلّ تعلو صباحاتهم وكل ثواني عمرهم، أرى كيف يدخلون في عنق ذلك القهر الصغير، يصغرون ذواتهم ليكونوا على مقاس المفترض والخوف والجبن والذل والاضطرارات التي تصل إلى إلغاء الذات وقهرها طوعاً أو اضطراراً.

يعرفون، ويعيشون ويعلنون هربهم من الدنيا، يعلنون الغياب والتيه في التفاصيل لأربعين أخرى من القهر احتفالاً بالوجود.

أربعون تماماً.. تريد أن تحوّلني لأكون كما هم حولي، كافية لأعلن رجولتي وتخليّ عن الحياة وعن كل شيء..

لأكفّ عن كل ضلالاتي.. عن كل حياتي..

ها أنذا أدعو دعائي.. دعاء الأربعين..

اللهم..

جمرُ هاروت يُحرِقُ كل خلايا دمي، لأصير غيري الذي فيّ. فيّ غيري.. يعيش فيّ.. ينتظر فرصةَ إثارته السانحة كي يهيمن عليّ.. ليغيرني ويحولني إلى كل الذكور.

- غزالاتُ الذهنِ تطاردُ روح الرواية يا سيدي.

- أتروي لتغوي؟.. تعال لأرض الغوايةِ، عُد لأصل الروايةِ الأولى.. ما زلتَ بعيداً.. ذهنُك مجبولٌ بغواياتهم، ولا انفكاك لك منهم.

- لماذا يا سيدي؟

- لأنك لا تستطيع أن تغادر زمنك.

- أنا لا أفهم، عدتُ للمربع الأول كي أفهم ولم أفهم، ولقد يئستُ من الفهم، جربتُ الكثير.. حاورتُ، ولم أفهم.. يبدو أنني لن أفهم يا سيدي.

- هذه هي الخطوةُ الأولى الحقيقية، هذه بداية الفهم، واصل دون العودة إلى أحد، اذهب وابحث عمن وصل

وعمن لم يصل، عن المريد والسالك والعارف، ستجد الكثير مُخبّأ هناك، والأكثرُ مخبّأ فيك، ابقَ متوقداً دائماً، كن ناراً عليك لتراك..

***

يا سيدي وشيخي أدركني.

أعرفُ أنك إن أقبلتُ عليك تُقبل وإن أدبرتُ تدبِر، وأعرفُ أنني أهملُ وصاياك وحكمك.

عَمايّ يدفعني للخروج، ورؤاي تضيق وتنحسر.

يا سيدي يأخذني الجسد، هو تاجُ روحي ومقرها ومنتهاها، هو تعبها، ألقها، فراغها وهواها، أهون عندهُ وأهان، كأني في لهاثٍ عبثي حولهُ ووراه.

والأنوثةُ يا سيدي.. أمّا مرت عليك، أما مَسّتك؟

وصل تاسع

أربعون عاماً من العيش مع الموتى.. إلى أين يمكن أن تفضي؟

أربعون عاماً من الرعب المُحتل والمهيمن على كل خلايا دماغي وأعصابي وأحاسيسي، من الرعب المسيطر والمسير لكل ثواني العمر.. مموهاً ومواربا، ملهياً وملتهياً، ميتاً ومميتاً أعيش.

والعمرُ أول من خان.. هو الذي كان يأخذني عنوةً من أمام كل الأشياء الجميلة قبل أن أدخل فيها ويرميني هناك.. بعيداً عني.. أو هنا حيثُ الميّتون.. كم مرةً أخذني من أشيائي الحميمة وأخذها مني..

ما زلتُ ذاك الطفل الصغير...

كم مرةً ألقى بوجه خجلي الشفيف كل البذاءات.. كذبَ عليّ كما لم يكذب أحد.

يعذّني.. يصبّرني، يلهيني بالأمل، يزيّنُ لي الأشياء، يوهمني بحياةٍ ما.. أصدقهُ وأمضي إلى الوهم الذي صاغ،

انسابُ من حلمٍ ووهمٍ إلى وهمٍ آخر، وحياةٍ أخرى يضعني على أعتابها وينصرف.

ها أنا أجلسك أمامي يا سيدي العمر، قف قليلاً ولا تنصرف.

هل تذكُرُ يا سيدي.. هل تذكر أم أنك بلا ذاكرة، كما أنك بلا قلب.

ثملُ عمرٍ حارَ في أمرهِ فدار به السؤال...

يلتاثُ رأسي بكل شيء، وألوثُ بياض الجدار بالصور والجمل والتواريخ.. الجمل التي صاغتني أحبها وتقولني، علقتها على جدار غرفتي حتى اكتظ بها، فمالت تبحثُ عن أي فراغٍ لها.. وصار ما يشبه الصراع بينها، كل واحدٍ منها يريدُ له مكاناً.

حارت روحي بأمر الساكن فيها، عندما مرضَ.. حنت له وعليه، سافرت له، وصلته، والوصل عمى.. كم صاغ.. كم هدى وغوى.

الموسيقى.. حياةٌ تقول كل شيء.. ثم تنتهي.. هل تنتهي أم تموت؟

كيف ينهونها بكل هذه القسوة...

والروايةُ موسيقى تقول.. والصمت آخر الكلام.. أولهُ.. قبلهُ.. قلبهُ.. حضنه.. أمهُ.. أصلهُ.. وأبوه..

الكلام هو ما تبقى من الصمت.

والصوت هو إعلانٌ لمطلق العبث.

الصوت هو العبث متجسداً.

ما الذي يفضي بنا إلى فوضى الصمت، ما الذي يُسكِنُنا فيه؟ وما الذي يفيضُ منا ومنه؟

***

نفكر بالوعي، ونعيش ونسلك باللاوعي... أي لُبوسٍ غبي.

مذ اختفت مكتبتي من البيت، تحولتُ إلى غبي، ربما كانت تذكرني بي، كثيرةٌ هي الأشياء التي اختفت، كُثُرٌ همُ الأشخاص، وكثيرةٌ هي الأشياء التي صارت تأخذني مني، غابت الأشياء التي تذكرني بي، حل محلها كل هذا القهر والعهر المعلن، وساد كل ما هو صفيقٌ ورخيص.

كُنتُ "إن لم أجد زورقاً للهيام أهيمُ كل المواني".

والآن لم أعد إلا هائماً يهذي..

جسدي الذي بدأ ينكسر، جسدي الذي أربيهُ للعدم، ما الذي يمنعهُ من الدخول في الخرافةِ والأسطورة، دمي وقهري المستمر، ما الذي يمنعه من الفوران؟

كل هذا الدم... كل هذه الحيرات التي تهدر، كل التفاصيل. كل هذه البراءة، كل هذه الطفولة، كل هذه الحقيقة، كل هذا الوهم.. ألا يكفي للدم كي يفور..

تزنّر بالبهاء الكلي.. واصعد إلى علياء الحقيقةِ.. اذهب إلى نهايات الخرافةِ.

كُن في حويصلةٍ من حويصلات الطيور الخضرِ.. فوالله هناك مكانك، في ضيق المسافةِ بين حزام النسفِ وجلدك.. في حباتِ العرق التي تهبطُ من تحتِ إبطك.. في اندغام مسامك مع مسامِ العبوات.. هناك حقاً تكون، حين تصير كلُّ مسامةٍ من جلدك ناراً، وتصعدُ إلى الهباء الكلي، فالحقيقةُ دائماً فيما لا تراه... فاذهب خارج البصر.. تكثف حتى تَخالك لا تُرى لتكون.

ما الذي ستقدمهُ لك الأيام، بماذا سيخدعك القادم أو الغيب، هل عاد طعمٌ لشيء، لقد أفسدوا كل شيء... ها قد أتى الغيب، وأحضر معه تلك الكلمة الخبيثة.. المستقبل.. وها أنت تتكررُ، وتتوالدُ مهزوماً، ها هو المستقبل يتكشفُ أمامك، ويتعرى قطعةً قطعة، فرصةً فرصة، أملاً خديعة، وها هي الأشياء تتعرى أمامك وهماً وهماً، وحلماً.. حبيبة، ها هو المستقبل بكل تجسداته ماثلاً أمامك، كم بقي من التواطؤات يمكن لهُ أن يبرّزكما معاً، أي رهانٍ تركوه لك، حتى ضعفك واستيعاباته واحتمالات التموّهِ لم يتركوه لك.

لا شيء أبلغ من الدم... لا شيء يقارب الحقيقةَ إلا الدم.. فالمجدُ للخرافة.

دعنا نَصوغُ خرافتنا الجميلةَ بهدوءٍ ووعي جميل، فلنخدع أنفسنا ونخدعهم كما ينبغي للخداع أن يكون، دعنا ننطلي علينا وعليهم.

طلب انتساب لموتٍ فلسطيني، مشفوع بالخجل الشديد، خجلِ العرق المتصبب، خجلِ القشعريرة، خجلِ الرجفةِ، خجلِ الجُبن، خجلِ الحقيقةِ المطلقة... خجلِ الذين لم يتعودوا الخنوع ولا يتقبّلون الإهانة، خجلِ الذين لا يتقدمون الصفوف، خجلِ الجدارة المرعوبةِ من الاستعراض، خجلِ كل الحقوقيات المرميةِ هناك في آخر الجمجمة.

ثمةَ جسدٌ عبقري، احتلني فجأةً، كأنني وكنتهُ.. ثم عُدتُ وحيداً على ذات الطاولة..

"ثمة وهمٌ ضروري".

هو ذات الجرح، مهما حاولت الالتفاف عليه، مهما أبدعتَ احتيالاً.

مهما التفتَ لغيرهِ، مهما التهيتَ، أو أخلصتَ لغيرهِ، مهما أخذتَ أو أعطيت.. يبقى ذات الجرح.. وسواءٌ أوقفت نزيفهُ أم خففتهُ أم تركتهُ نازاً.. يزفّ إليك دائماً بشرى روحك الخربة، وذاتك المحطمة والمتشظية، حتى لو صارت مِزقكَ نوراً وناراً، حتى لو أضأتَ أو أشعلتَ الحرائقَ في كل مكان، حتى لو عشتَ لذاذاتِ العالم قاطبةً، حتى لو فهمت وبرّرت وعشت.. حتى لو عشقت.. سيبقى ذات الجرح يطاردُك حتى الأبد.

لقد كان وهماً، لقد كان حلماً يحاول.

أنت وحدك دائماً تراك.

ليست المشكلة بينك وبين الآخرين.. المشكلةُ دائماً بينك وبينك.. المشكلةُ فيك.

تذهبُ كل الكلماتِ هباءً، بمخيفها وسخيفها، بقويها وضعيفها، ويبقى الجرحُ مفتوحاً، ستضيعُ كل الشعارات، وسيأخذ الزمن كل كلامنا معه بانثياله السرمدي.. ويبقى الجرحُ غائراً في العمق.

أحدٌ سينفضُ عن نفسهِ غبار العيشِ ويلهثُ باللغة.

أحدٌ سيحاولُ أن يقول شيئاً فيكمّموه.

وأحدٌ سيقتلهُ القهر ويموت.

أيتها الدماء التي سالت، يا دمانا التي تروي عطش روح وتشفي صدوراً.. لا يليقُ بهذا الدم إلا صنوه، دماً جديراً، حراً، نقياً وشريفاً.. لا يليق بهذه الحرية إلا ما هو أعلى منها.

كأننا لم نولد إلا لنكون الوقود.

المجد لنا ونحن نشعر بالخسارةِ عندما نموت موتاً طبيعياً، نستخسر الموت حين ينزوي في العادي، لا نريد لأي منا إلا أن يصعدَ سلم المجد، دمنا يستجر دمنا ليصعد، نحن الذين تهنا ودوخنا العيشُ ودوختنا الدنيا ودوخناها، علمتنا وعلمناها، ولأننا نستحقُ الحياة، لأن نداء الحقيقة والحق يصدح في مساحات روحنا الشاسعة، ننزع عنا كل زينةِ الأرض، ونتزنرُ بالعشق، نتركُ كل قشور الحياة ونذهبُ للجذر.. للحق..

غربَ النهر.. غربَ الروح وغربتها.. وجع التشظي والعجز، أسطورة الاستشهاد المستمر والمعري لكل شيء.

أيا آلهة الإغريق أي ملحمةٍ مطلوبٌ منا أن نعبر ونتجاوز كي نحيل كل هذا الدم والموت ونثار الأرواح، غباراً.. أبهى.

كيف نحاول أن نجمع كل ما يحدث الآن في نصٍّ أو فنٍّ أو رواية؟

كيف سيحوي نصنا كل هذا الألق، كل وهج هذي الدماء الذي لا يُحد؟

كيف لها، للغةِ، أن تعبر بكل تلك المعاني، بكل هذا الجنون العبقري الجميل؟

صباحُ الخير أيتها الدبابات.. صباحٌ خاص للطائرات.. صباحُ الخير أيتها الوحوش.. دمنا غذاؤكم ووقودكم الوحيد.. صباحُ الخير.. هل شبعت الدبابات من دمنا..

صباح الخير لدم أطفالنا الذي يثير شهية الوحوش أكثر.. صباحٌ للحم أطفالنا الذي تفضلونه أكثر..

صباحُ السلاح الذي ما عاد يصنعُ إلا لقتلنا..

صباح التكنولوجيا وصباح الحضارة، صباحُ حقوق الإنسان، أي إنسانٍ غيرنا.

الأنا.... صيغة منتهى الجموع.

والأنا حائرةٌ في أمرها، لا هي قادرةٌ على الاندغام بشرقها وتراثها ولا هي قادرةٌ على غربتها غرباً.. حاولت

وحارت وهي تنير أو تشير لاتجاه الحياة لكنها تعيش بفصامٍ عجيب، يوجعها أنها تدركهُ.

كثيرون استبطوا حقوقياتهم العجيبة...

وأنا أريد حقوقاً دون سوءٍ أو إساءةٍ، دون إثم أو ذنب.. دون أن نكذب على ذواتنا وعلى الآخرين، دون أن نوهم أو نتوهم.

المجد للهو في الأعالي وعلى الأرض السلام...

المجد للهو هنا وفي السماء الغفران...

فطوبى لمن رأوا وهمهم أمامهم، وما خانوا رؤاهم.

صباحُ بقر البطون... صباحُ حرقنا أحياء.. صباحُ رؤوسنا المُفرغِ نصفها.. وصباحٌ خاص لأعضائنا التي قطعت وتلاشت وضاعت.. مثلما روحنا التي صدقت وهم الحضارةِ والإنسانية.

صباحٌ خاص لكم.. تدفعوننا.. نحن الذين عشنا جزءاً ليس يسيراً على وهم منجزكم الإنساني، الفكري والفني والأدبي...

صباحٌ لنا... وأنتم تطردوننا بعيداً جداً عنكم، بعيداً نحو الكهوف..

صباحُ الكهوف والأنفاق التي سنبنيها أجمل.. التي سنجتمع فيها ونفكر، نخترع، نبتكر، ونقرر... كيف سنلمّ بقايا دمنا وأشلاء أطرافنا وأجسادنا التي ضاعت..

فهل يلم الدم إلا الدم، هل ينادي الدم إلا الدم..

صباحُ الخير... سنأخذكم معنا لحوارٍ آخر، وبطريقةٍ أخرى، لما بعد الموت.. علّنا نلتقي هناك ونتحاور.

صباحٌ.. مقدسٌ وأخير.. نديٌ طاهرٌ، نقيٌ وخالصٌ... لنداء المبهم في روحنا... لسبب وجودنا وتاجِ حياتنا، للموت سيدنا ومضيفنا القدري...

صباحٌ أخير لاستعدادنا التاريخي والقدري للموت الذي تجبروننا أن نحبهُ أكثر مما تحبون الحياة.

ماذا نفعل لكي نستر هذا العراء الذي نشعر، كيف نواجه ما تتركه هذه الأحداث في دواخلنا.

هل يمكن للكتابةِ أن تطال لون الدم؟ هل يمكنها أن تستشهد؟ هل يمكن للفن أن يقترب من المقدس ومن مجد الانتفاضات المستمرة...

أي عري فضحته التضحيةُ بنا... وأي كلام يطال كل هذا البهاء.

هل يمكن لروائي وقودهُ التخيل أن يكتب شيئاً، في واقعٍ يفوق بعظمته وجنونه كل الخيال وكل الأساطير؟

من أين يأتي هؤلاء الرجال بكل هذا الألق؟ كيف يصيغون روحهم وأجسادهم، ثواني نهارهم؟

هل يكون للروح أن تقابل بشفافيتها ورقّتها، كل هذه القوة المتغطرسة، القوة المدججة بالقسوة والتكنولوجيا.

هل سيكون للعصافير أن تواجه بزقزقاتها الناعمة والناعسةِ كل هذا الدمار؟

كيف يهدهد طفلٌ فلسطيني طائرة F16؟

أي حياةٍ هذي التي تستمر؟ أي شيء هذا الذي يحدث الآن؟ ماذا يمكن أن نسميه.

هل سيليقُ به اسم؟

هل من جدوى للكتابة؟

أي خيال.. أي حلم...

غرائبية بائسة تبتدع ما يمكن أن نسميه "الجديد".. القوة الجبارة لا تستطيع أن تحمي نفسها من فتىً ملّت روحهُ قهرها المستمر، ملّ من خوفه وتخويفه، فاختار أن يذهب للقوة ليخوفها.

دمٌ.. وحده الجديد... وحده لمبدع المبتكر الجريء.. وحده الذي يقول:

ونحن.. نحن ندخل في تفاصيلنا الغبية، نغرق في كونٍ من التوافه والتخلف.

لا يستجرّ منا هذا الدم إلا الكلامِ.. إلا اللغة، وكل لغةٍ بها شيءٌ من الرياء.

هذا الدم ليس لنا.. فنحن لا نفهم سوى اللغة...

هذا الدم لهم.. لأولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون.. للذين لا يفهموننا، هم وحدهم مَن دماؤهم تستشعر، تتحرك، تحسّ. دماؤهم تشم رائحة الدم.. تُلحقُ الدم بالدم، تقرنه به، تتابع توحّده، ترفع رايته وتحميه.

لنا الحبر.. بكل ألوانه، لنا العجز، لنا القدرة الفذة على التبرير، تبرير أي شيء، ولنا كل الكلام. لنا أن نختار منه ما نشاء، كلام ثوري، كلام منطقي، كلام جميل، كلام حماسي، كلام عقلاني، كلام استراتيجي، كلام مرحلي، كلام مفيد، كلام غير مفيد، كلام في وقته وكلام في غير وقته، ولنا أن نحدد أوقات الكلام.

ها هو يعتلي ربوةً، ويقنصُ عشراً.. يجرحُ خمساً وعشرين...

ينسحب بسرّ وسرور...

يشفي صدوراً...

ها قدماه تستعيدان وعيهما الأسطوري المعتّق، معرفتهما ودربتهما العتيقة في التاريخ... ها وعيٌ في لاوعيه يجعل خلاياه ودماه تعرفُ هذه الأرض وتحفظ الطرق عن ظهر قلب.

ها جذعُ الشجرةِ يتضخمُ ليمعنَ هو في خفاه...

ها هي التلال التي عاش ولعبَ وتشاقى فيها أبوه، تمنحُ ذات الدم المتدفق في العروقِ ذات الحب، ذات الألفة وذات المعرفةِ...

في انحشار الجسد المتخفي، في انطلاقةِ المغامر، في القفز والاختباء... يعرفُ الأرض أكثر مما يعرفها.. كأنه عاش هنا زمناً، هو الذي لم يرها مسبقاً.

الأرض تستشعر.. تتلمسُ ذات الخطى، تحسُ ذات

الانحناءة، ذات التكوّرِ والقرفصاء... ذات إغماضة العين اليسرى....

حجرٌ صغيرٌ وخزَ أبيك.. فملتَ قليلاً...

وصار من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً.. فما رآكَ إلا الليل

ما كان نهارٌ.. وما كان ليلٌ.

كان أن الله قد أعطاك.

كيفَ يتحولون ليصبحوا عدائيين، عدائيين في كل شيء.

كيف تبتدأ المسألةُ تدريجياً، ثم.. تتضخم أخيراً.. ليصيروا في صفوف القتلة؟

ما الذي يأخذهم منهم ليصيروا غيرهم؟

الأشياء.. كل الأشياء مكتوبةٌ مسبقاً... معروفةٌ، أنت تعرفها حقاً.. تحسها.. لم تستطع أن تقولها.. فقالها آخرُ... أو كشف عنها بعضَ غبارٍ كوني بشفتيهِ ولسانه

قلمٌ ما... قلمٌ خفيٌ هو الذي يخطّ ويقولُ كل تلك الأشياء، وإنما يكونُ يوزعها... حينَ تخالُكَ تلتقطها لاهثاً وهي تجري بين شفتيك أو على ألسنةِ البشر.

هذي مدينةُ حزني.. "هذي سفينةُ حزني".. أبنيها في مدينةٍ لا بحر فيها... أزينها وأُعدها لمسير عشرين عاماً من البكاء.

مأخوذٌ ومستلبٌ لكل الأشياء، لكل التفاصيل، متشكلٌ

حسب قسوتها ولينها، حسب زنازين حشرها وفضاءات رحابتها، بحسب منحها أو منعها أكون.

تفور روحي بما لا أدري لهُ أصلاً.

لستُ أنا.. ومحشورٌ في زمنٍ وجسد، محشورٌ بقوانين لهما لا أدريها.

هي لاهيةٌ... لا هيَ ولا أحد مر بمرارة الروح وعذوباتها، بحلاوة الفكرة حين تراود شقاوة السؤال، فيماحكها لتواصله. وتعاند كل اللاجدوى القارةِ المستقرةِ، شامتةً ومستفزة، واثقةً من فوزها القدري.

للاجدوى غيّها ودلالها ونشوتها بالنصر القدري، وأنوثتها تماحك كل الأرواح الضليلة، وتواصل إعجازنا وإلهاءنا، ثم تلهبُ شبق أرواحنا للبحث، للسعي وراء عطشنا لمعنىً ما، لجدوى ما، تُحيلنا فنتوه، نتوهم، أننا نُجدي، ثم ندرك وهمنا فنستجدي، ونستنجد بكل شيء، نلثغ بالحروف، بالأصوات، بالألوان، بالحركةِ بالرقص، ليأتي نصاً، فناً، غناء.

السؤالُ ذكورة المعنى... وللأنوثةِ -الروايةِ- الحياة أن تطغى على كل شيء. لها ألاّ تُطال، لها أن تبقى مطلق الحلم، لها أن تضيء أو تُظلم، لها أن تُسعد أو تشقي، لها أن تطغى.

ولها تنتمي كل الأشياء وتسعى، وأسعى لها وحدي حاملاً بهجة ذكورةٍ بريةٍ، شائقةٍ وشفيفة، مضمّخة بإنسانيتها،

لم تمتلك ذاتها وروحها لتستبدها وتستبد بها، لتضيع وتفسد أعاليها بما تتوهم امتلاكه، ذكورة مرهفةِ الأنوثةِ والحس، ذكورة متهمةٍ بما تراكم تاريخياً.

وحين يعلو الوعي، ونحار في السؤال، نرتبك، نتردد، تأخذنا الأشياء لِلُطفها وتلطُّفها، نُتهم بفقدان الرجولة..

نبقى واضحين كالقسوةِ، تائهين وحائرين، تُشَكِلُنا الأنوثةُ - الروايةُ - الحياة، كيفما أشارت نسير، لا زينةً لنا، لا نُزَينُ أنفسنا، بل نُغيّرنا تماماً، بكل هذا الضعف، بكل الضعف، وبالاستعداد الكامل لأن نصير أي شيء، ونُصاغ حسب مزاج الرواية - الأنوثة - الحياة، مزاج حاد متقلب وحساس، يتأثر بسرعة، يتغير بسرعة، ونحنُ بعدُ لم نستوعب أول انقلابٍ له، لم ندرك بعدُ أول انفلات.

ليس لنا ما نتربصّ به، ليس لنا وسائل للحماية، ليس لنا خطوط دفاع وأساليب، ليس لنا تعقيدات ودهاء ودهاليز وأعماق، لنا نهارنا، وضوحنا، نواصل العمر مستلين للحد الأقصى، قاهرين ومقهورين، مرسومين حسب أمزجة رغبات آخرين غيرنا، وكما يرسموننا تماماً نكون، ثم يملّوننا فيثورون علينا.

وإذا انسبنا تماماً كما اللون، نُطالب ببرودة احمرارنا، فننفعل، لِنُتَّهم بأننا مأزومون، فنُهدِّئ أرواحنا لحوارٍ، فنصير بأعينهم مواربين نعاني من عدم القدرة على اتخاذ القرار..... نصمت فنتهم بالخيانة.

هذا الثالوث، الرواية والأنوثة والحياة، في تراكمات حيوات سابقة، في تراكُم الروايات، تراكُم النعومات، يأخذنا الآن، نصير جزءاً منه.

في بحثي المحموم عن الأنوثة، وجدت كثيراً من أشيائها تشيرُ إلي، هل تسرّبت إليّ من بحثي الطويل فيها وعنها؟ أم أن جيناتي الأنثوية تتململ وتحاول أن تسود؟

هي الأنوثة مني، وأنا منها، وهي ما يهلك الروح وتشتاق، هي مبهمي، هي سرّي ومنتهى بحثي وتوقي، هي صلاحُ أمري، وحالي وبالي.

أهي نصفي المفقود؟ ألهذا يُفسِدني توقي اليه، أو يفسدهُ؟

كلُّ الأنوثةِ أخذت من ضلعي، فكيف سيكفيني جزؤها؟ ومتى ستكفّ عن تفتيتي؟ في أي زمنٍ ستكفّ ملحقاتها ومُحلّقاتها عن بعثرتي، ورميي للهباء؟

***

أضلّتهُ شهوتهُ المميتة. . . وكلما لمَّ شتات نفسه، كلما عرفها أكثر واستبانها، كلما مَسَّ اندلالاً ما عليه وعلى ما يريد، كلما فرح بمعرفته بما يريد ولمجاهيل الرغبات العاصفةِ والمتناقضة فيه، كلما أحس أنه يوشك أن يكون سوياً. . . . جاء مجون الشهوةِ يعوي. . ويرميه بعيداً.

مشى طويلاً في كثيرٍ من الطرقات التي يقال إنها تُفضي إلى طمأنينةِ القلب، طارد كل أوهام التحقق، غازل مجد الوجود... ولم يكن قادراً على مغادرة الافتراضات البهية..

ربما لم يُسائل تلك الافتراضات عن صوابها وبهائها، فهو كغيره حين وُجِدَ، وَجَدَ كثيراً من الافتراضات الصائبة والمجربة والصحيحة تسير في دمه، وتجري في جسده وروحه مجرى الدم، فكانت جزءاً من كيانه، كانت جزءاً منه.. فكانَها.. وكانَهُ...

هو الذي لا يدري كيف تتحرى الرغبات له وتتقافز في روحه وتشبُّ في دمه في كل مراحل العمر... تفاجئهُ دائماً وتحيلهُ آخر غيرهُ، آخر لا يعرفه.

كان الأنوثة.....كان الذكورة وهم.

أرجوحة المعنى تُجاذِبُ أطرافَ الأشياء ولا تصلها.. تُلامِسُ أول رؤيا لأطراف السماء... تماسٌ حبيب يثيرُ غبطة ما في القلب، يرفعنا ذهابُ الأرجوحةِ لحدهِ الأقصى، لمنتهى مداه... وفي إيابها ما يشبه الانكسار الشفيف، انكسار هيّن، يمرُّ سريعاً، نتقبلهُ بروحٍ قدرية السرعة والإيقاع... نمرّ به... نعيشه، ندركه، وننكسره بتسارعٍ عجيب، ونمضي أو تمضي بنا الأشياء لأشياء أخرى، نخالها أكثر أهميةً، أكثر جدارةً بالوقوف عندها، أو تسحبنا هي دون أي جدارة أو أهمية، مأخوذين، مأخوذين حتى بعملنا الذهني لا إراديين.

مستلبون للحد الأقصى، متسرنمون يعمهون في غياهبِ غيٍّ ليس غيهم....

ليس غيّنا.. وبهِ نتوه.

ها أنا ذا قد وصلتُ إلى حافة العمر، أختبئ بجحري الفأري، وها شعري ولحيتي قد استشاطا شيباً، وجسدي بأطرافه، كله قد تهدّل، وها إنني أستعيد نكهةَ مشروبي الرديء وطعمه، أمزمز أطراف نكهته الموغلةِ بالأذى، أمصمصُ أطراف شفتي وشاربي المهمل بحثاً عن بقايا قسوةٍ وقوة الرداءة في فضاءات ما يتركهُ المشروب عليها.

أهذي كما أولات عمري.. بكيس رملٍ.. والترانيم التي استيقظت ذات يوم.

ها أنا بكامل أبهة وعيي، بكل حماقاتي، بكل سيئاتي، عشت كثيراً ولم يأتِ ذاك النضج الذي كانوا يتحدثون عنه، كأن العمر كله انقضى دون أن أمر بمراحل قيل إنّ الجميع يمرّ بها.. أي مصير لجوجٍ يعربد فيّ الآن، الآن تماماً وأنا أكتب كل هذا الهراء.

لي حبيبة، لا أتحدث إلا معها أو لها أو في الطريق إليها، وكل شيء آخر غيرها نوعٌ من الوهم.. هي دون غيرها، هي تحديداً، هي التي وجد الوهم كي يعبر عنها وفشل، لذا فقد أبقي مذكراً ليبقى متذكراً فشله، عله يتزاوج مع خيبةٍ ما فينجبُ اسمها أو كُنهَها أو اسماً حقيقياً ودلالياً لها.

"تفتح زهر.. تفتح حزن كثير غداة افترقنا".

عمرٌ مرّ وروحي تُضغط تحت وطأةٍ وثقل الإحساس الكامل والمطلق بالإثم لرغبتي بالفعل، رغبتي بارتكاب الآثام واحداً واحداً، سنوات بشهورها ودهورها وثوانيها المثقلات، لأكتشف بآخر الآخر.. بآخر الزمان، أن الكلّ أخذ حقهُ كاملاً من الحياة.. عاش كما اشتهى.. عاش وعاث.. ولم يحس مثلي بالإثم...

حاولت في غباءٍ ما، البحث عن نقطة التوازن، الوقوف في المنتصف، ليس هنا فقط وإنما في كل شيء، حاولت أن أجد تلك المساحة بين الواضحين وأوضحها أو أقولها أو أبشر بها.. إذ لا يمكن لنا أن ننصاع فقط لرغائبنا بشكل حيواني، لا يمكن أن نترك غرائزنا تُحيّد كما الجمال الموجود في الروح، وما زلت أحاول، كنتُ أحملني متلهفاً حين أثمل، كنتُ أخرجُ متلهفاً على من يراني..

و.. لم يكن أحدٌ يراني.

.. كانوا كلهم معميين..

كانوا يعمهون... وكنتُ وحيداً.

.. والترانيم... الترانيم.. كيف استفاقت على صحوِ هذا المساء؟ أنا تسكرني هذه القصيدة بلا خمر، هي وحدها خمري وسكري، تأخذني دائماً إليّ.

كل الأشياء إشارات.. قد.. وقد لا نلتقطها.. لكن....

كأن الكون خمر، الخمر خمر والصحو خمر.

"بلا ولا شي.."

بلا.. وكان مساء الأحد..

وكانت الشمس توشك

إنه الرابع من...

ها هو الأول من...

بلا كل افتتاحيات الغباء..

بلا كل الغباء..

"بلا ولا شي".

يقول الروائي :

الحياة أقصر من أن أضيعها بالكتابة

أكبر من أن أضيعها بالكتابة

أضيق من خُرمِ إبرة

وأوسع من أن يحتويها كتاب.

وهي فنٌ لا يُتقنُ، وعي لا يُدركُ، وهمٌ تحركنا تفاصيله، هي سيرنا اللا إرادي نحو اللاشيء، عبثٌ مقطرٌ إن لم يلفنا عمود الضوء القادم من السماء

لا يشبعُ من شيءٍ منها، لا يُمسكُ بشيء فيها.

وهمٌ مطلقٌ، أصل السراب، منبع الكذب، محضُ خيال.

لهوٌ وعبثٌ مطلق، لعبةُ العبقرية الفذة، لعبةٌ إلهية الخلق والابتداع، إلهية التكوين والتفاصيل، لعبة لا يُحاط بها، لا

يُحاط بأي شيءٍ فيها، نَمُرُّ فيها مرور الكرام، لا نأخذ منها ولا نتركُ فيها، لا يمكننا القبض على أي شيءٍ فيها، فكأن كل أشيائها محضُ وهم، أو أنها تتبخر، تذوي، تغيب عندما نشعر أننا قد اقتربنا منها وعلى وشك أن نمسكها أو نمسك شيئاً منها

وبها من خفة الوجود ما يسحبك خارجك أحياناً، فتنسى نفسك وتنسابُ حياتياً وراء أشيائها، تنزلق كلك في تفاصيلها، تنسجم احتياجاتك مع كل ما خلق من أجلها أو خلقت له، تتحقق أشياؤك بالوجود العبقري الفذّ، تكونك ولا تكونك، فلا تعود تعرف من أنت، هل أنت هذا الذي أو ذاك.

سحرُ البسيط الممتع، قدرتهُ على جذبك وإغراقك، قدرته على سحبك من نفسك ومن أي شيء.

دهشة المعنى وفذاذة الربط، جدارة القول أو المعنى، دهشة أن تجد آخر يقولك تماماً كما أنت، أنت بكل التفاصيل، ترى روحك ممدةً بين أحضان الكلمات، كلماتِ غيرك مرصعةً في كتاب.

رجل يقرأ الجريدة

رجل يشاهد مباراة في التلفاز

رجل يوغل في الخطاب والكلام

امرأة توغل في الخيانة

طفل يوغل في الضياع.. وفي الغياب

رجل يغرق في الأصل..
يراقب دودة الأرض
امرأة تكبر رغبتها.. تسرق دمعتها
وتشتهي حتى السراب
تتشوق...
وتموت بأول يد تطرق الباب
يونغ.. يا جدي التعس
خاب سهمك
فخاب رجائي
ضيّعني وضاع.. في قُربه وفي بعده، في حضوره وفي غيابه.. ضيّعني.
في دقة الوجه.. في نعومة التفاصيل.. في...
لا أدري كيف حين أراه.. أصير آخر غيري.. سواي.. أصير كما شاء هواه.
"أنا كل ما ضاع.. كل ما لا يُفتش عنه".
هي أغنية، أنا كلماتها وأنتِ عذوبة وعمق موسيقاها.
على قارعة الطريق..
كان أنني.. كان أنهم..
ملتحفاً برد عمري ونائماً.. في زمان مهمل وفقير..
لم يصبروا عليّ علّي أستفيق من عسالةٍ عكستُ وقتها.
مهملاً ومرمياً على قارعة الطريق التي لا يسير بها أحد، تعمدت أن ألقي المهمل في المهمل.. مهمَلاً حد الاهتراء..

أهملت روحي مبهمها، استفاقوا عليّ ثملاً، نائماً في زقاق..

واستفاقت روحي عليهم.. وقد غادروا.. "كلهم غادروا بالتتابع".

استفقت أنني. أنَّ فيَّ.. أنَّ أنايَ.. ونأى بي كليّ عني..

أنني لست لي..

ثملاً في زقاق غريب.. لا أذكر كيف استطاب جسدي ملمس الأشياء، ولا أذكر شكل الاتكاءات التي بنى جسدي نومه عليها، ولا كيف نام، إنما قد أفاقوني على صبح التعب، أفاقوني ليقولوا..

كان أنني.. وكان أنهم.. وما زلت على قارعة الصواب..

لم يكن ضرورياً.. لم يكن شيئاً.. لم أكن.. لم تكن..

كان أن للأشياء وقاحتها الفجة.. ولم أكن وقحاً..

كان للعمر خونةٌ..

وكان أن خانتني كل الأشياء..

كان أن خانني العمر..

كان أنني نمت على حافة القبر.

كان أنهم رموني وحيداً..

كان أنني الآن وحدي..

كان أنهم.. هم..

أنهم..

هم...

أنهم

شيءٌ فيك يشعرك.. يأخذك.. يبعدك.. يقصيك فتلعب لرحم الزاوية، لحضنها، تسأل دفئها، حمايتها لك من تجاذبات الريح التي تلاعبُ روحك وتلعبُ بها، ترميها كيفما اتفق، تلعب للزاوية، تستجمع بقاياك، تحاول لملمة النص الذي يتبعثر، النص العبقري الفذ، المكتوب قبل صبح الخليقة، النص الذي تُحيينا فيه، والذي لم يكتبهُ غيرنا، فنتوه كيف نكتبُ قدراً مكتوباً.

***

أرى السواد لوناً آخر.. أرى وهمي الخاص، غير الملزم بأن يقترن بالصواب.

أرى كل الأشياء على رداءتها تؤسس لروح الرواية الجديدة، أرى عمان بكل الرياح التي تتلاعب بها تقترب أكثر من روح مكان جديد لرواية جديدة، أراها تقترب من صورة ما لا أدركها الآن لكن أتوجسها، أراها تتواطأ من خلف ظهورهم مع الروائي، مع الفن، تأخذ وتستوعب وتستجيب لكل ما يريدون، وتحتمل ظلمهم ورغباتهم، تمتص كل شيء لتصعد وتشرق.. تشير.. تشي. تتململ، تقسو قليلاً عليه،

تختلف معه، تماحكه أحياناً بسذاجتها، بطفولتها، عابثة مرةً، وعابسة أخرى، لكن الروائي يحاول أن يكون أميناً لاندغامهما، يحاول أن يجمع تشتته إلى حيرتها، وهي تتسع، تحاول أن تختصر العالم له.

باختلافها تشير للمختلف، بغرابتها تدعو الغريب، تومي إليه بصمتها، ثمةَ ما ينبغي علينا اقترافه معاً، ثمة روح تحاول بانسحاقاتها المتكررة أن تعريش في ظل المكان الباقي، في وهم المكان، في وهم الفكرة، في وهم الرواية..

في وهم الحل...

أليس البحث عن الحل نوعاً من الوهم؟

***

العلاقات الخائنة للروح.. هي أصل المسير الفذ والعبقري للقذارة المسيطرة على كل شيء.

والروحُ طفلٌ يتلعثمُ في خطواتهِ.. بهيٌ في نزواتهِ، قدريُ الشقوةِ.

أيُّ غمامةٍ يتقنها العمرُ تقودنا نحو نهاياتها، أيُّ قدرٍ معمم، أي عمىً قدري.

ليس وحدهُ الشتاء ما يوقظ الروح، ليس وحده الحب ما يعمينا، ليس وحده العمر ما يخنق أزاهير الفرحِ والخروج، ليس وحدهُ الوصول، لا ولا القدر ما يكذِّبنا، نحنُ بالمتصف بكل تراكينا... لكننا لسنا وحدنا فينا.

كان لي أكثر من نهايةٍ، لماذا لم تكتمل أيٌ واحدةٍ منها، لماذا امتصصتُ رحيق آلامها، لماذا مِتّها كلها كاملةً بوخزِ تفاصيلها، ولم أمت لغاية الآن؟

كان لي أكثر من نهايةٍ مفترضة، وكان.. أنني لم أبدأ بعد.

أي عمىً ألمّ بقلبي فلم يعد يبصر.

***

ما عادت الحروف تزين الروح، لقد رمت كل زينتها.

والوردُ يتبرعمُ بالياقوت، ها نحنُ نسرنمُ والأشياء ترتسمُ بصمتٍ أمامنا.

ناري لا تريدُ أن تخبو، وكل ما حولي لا يساور هسيسها.

يا منهي العبث القدري، يا حادي الهداية.

مطلقٌ يغمرُ كل تفاصيل الفكر، دافعاً روحك لما يشبه الإيمان.

هذا العمر حماقةٌ لا تنتهي.

أستغربُ كيفَ أكونُ سعيداً بحماقاتي، شيءٌ فيّ يشعلُ جنون الخروج وشهوةَ الاختلاف، شيءٌ يفركُ لُبَّ الأشياء، يرفض رتابتها، شيءٌ داخلي يريدُ أن يقولَ ولا يستطيع.

منتديات الكوكب الساخر

وفي مكانٍ ما في الطريق أفقت عليّ فخرجتُ مني قليلاً، قليلاً خارجي لأجد الكون محتشداً على الزاوية الصغرى لقلبي، فاض الكون عليّ، أسعدني وأشقاني، أضحكني وأبكاني.

من أغلق دائرتي عليّ، وصَل أوّلي بآخري..

صديقي الخمر - صاحبي الذي لا يخلعني؟ حتى وإن على عتبٍ أو غضبٍ أردت خلعه.

***

لي عتبُ المعنى على المبنى، لي عطش الروح للجسد بعد أن خلقتُ له لغتهُ وعوالمهُ، بعد أن آختهُ، واخترعت لهُ روحاً ما فَهِمَ ولا أحس بها.

لي خجلٌ من الجمال، ولي كل الخوفِ وأكثر مما قيل عنه، لي الرعب المطلق من الأشياء، حتى لكأني محضُ خوفٍ يسير على قدمين ويحمل بين جنبيه رعباً قدرياً مُعتقاً.

لي كل التفاصيل التي لا تثير انتباه أحد، أحللها وأركبها وفق ما شاءت مشيئةُ الريح، أنحني كيفما انحنت، غير أني أحنُّ والريحُ بلا قلب.

ولي عينان أعشقُ بهما.. كيفما أرى. لي قلبٌ به

أبصرُ.. وبي من الأرضِ كل ما يورّث منذ آدم وبحافظةٍ لا تعرفُ القفزَ أو الاختزال أو النسيان.

أتفتَّح احتفالاً بالوجود.. مجرد الوجود.. وجود الشيء، محضُ وجودهِ، يزهر شرايين روحي.

ما دمتُ أستطيع أن ألملم شتات روحي وآخذها إلى الخمر.. ما دام ذاك العدد المفترض والمحدد مسبقاً من النبضات لم ينتهِ.. ثمةَ ما هو جميل.

في كل يومٍ أتطفّل أكثر، يزدادُ تعلقي الطفولي بالأشياء.

القسوةُ، هيَ كل هذا الجمال.

النعومةُ... هي القتلُ بخفةٍ و... ببطء.

الحقيقةُ... خاطرٌ مر ببال غيمةٍ في أوّلات العصور القديمة ثم هربَ مع أول نسمةٍ لصبحِ الخليقةِ.... وما زلنا نطاردُ خيالاتها وأوهامها.. ورثنا بحثنا العبثي عنها.

غباء.. كل ما يتحرك حولنا.

هباء... نحنُ.. بحركتنا وحراكنا المستمر.

الجمال... لحظة فكرٍ، محكومةٌ قدرياً بالنسيان، ومنذورةٌ للهباء.

الناس... وعاء مُمَرّه لكل ما قد يطاردك ويشقيك.. ولا يمكنك البحث عنه إلا فيهم.

الحُمق... هو ما أفعلهُ الآن تماماً.

والمرأة.. شكل تجسّد كل ما يعتمل في روح الروائي.

روح الروائي حين تفزع من تشظيها.. مَن غَيرُها يلمّها

ويعيذه لأول الدمع أول الحب. . وهي لا تبرئهُ منها إنما تهدئُ روعهُ تهدهدُهُ تُلُمّهُ قليلاً، تعطيه راحتهُ، واستراحةً قليلة تمكنهُ من مواصلتها، ليصعد في تجليه علةً يدركها، بما لا يدركه.

ما الذي يغريها في مواصلته بحثه عنها، ما الذي يمتّعها في ربط روحه بكعبِ وصالها العالي.

حتماً هي تستمتع باحساسها الكلي بالقدرة، قدرتها أن تحيل كل أشيائه ناراً ونوراً.

***

'ويزيدك عمقُ الكشفِ غموضاً. . . فالكشفُ طريقٌ علميٌ'.

***

ولا تعودُ تعرف، هي أم غيرها هذه التي تجلسُ أمامك وتتعامل، أو تتعامى معك.

أخرى لا تعرفها تجلسُ قربك، وتقولُ أشياءهم بكل صفاقة الأشياء، بكل سطحيةٍ مستفزةٍ بما يحيطُ بها من حقوقياتِ البشاعةِ المسيطرةِ على كل شيء، تغيبُ حتى لكأنك لا تراها، تغيب تماماً أو تستحيل أخرى غيرها.

- لستَ بهذا الضعف.

- به وأكثر..

يُروى أنهُ قد حاول رَوي روحهِ، فارتوى ثَملاً، وغامَ حتى غاب... غاب...

كيفَ صارت على غَفلةٍ، كل حبيباتِهِ، دون أن يدري، كأنها روايته، روايةٌ له، كأنها هو، كأنه هي، كأنه الرواية، كأنه حبيبته، حبيبته التي خُلِعت من قلبِهِ لتصير آخر.

كيف صارت كل ما يهفو عليه وإليه، كل ما يهوى ويريد...

الروايةُ بها ولها، كل مطلقات الأنوثة، كل أتون التفاصيل، كل لهيب الاحتراقات الداخلية، كل النار وكل البرد، كل وثارٍ أثير، كل غبطةٍ للروح، كل المجد والكبرياء، كل المهملات، كل المهمل في عصر الاهتراءات..

صارت سيدته... والرواية منفى، لا تصلك إلا بعد أن تقطع جميعُ صِلاتك بالكون... منفى تجتمعُ فيهِ صَلاتك مع خمرك، وترى دائماً قبرك أمامك.. وتواصلُ قبر أيامك تباعاً، تحفرُ وحدك فيها، أو تحفرُ هي فيك، تخطان معاً حروفَ حُرقةٍ ما، تُصرُّ على فرضِ إطلالتها منك، منها، فيها وفيك...

أيٌّ منا يكتب الآخر؟

ذاك ما أجراهُ اللهُ على لساني، وهذا ما خطهُ على قلبي.

كأني لستُ إلا هي، ولا أعرَفُ إلا بها.

وهي لا شرقية ولا غربية... يكاد....

"راغَ"... "دعهم يُلهِهم الأمل"... "يعمهون"....

أقرأ.. فيأخذني النص لما يشبه السكر، أو أنه السكر عندما يعودُ صحواً مطلقاً، دقةً، حدةً، قدرةً ورؤى.

وحدةُ العمر، يعبُرنا، ويسوقنا لوهج ما، ليدخلنا في التيه القدري.

و.. تهتُ بي حزناً وفرحاً، للأشياء في مسابي تفاصيل ومباهج لا تُعد، لها ابتهاج غريب بي، بفرحي وحزني، لها التحقق، وثارٌ أثير.

لكأن الكل المتراكم القدري.. محضُ وهم.

لكأننا مطلقُ وهم، لكأن كل هذا الحضور محض وهم.

وصل عاشر

وأنا ككل الناس.. وليس منهم.. أنا من أبي.
بروية وهدوء، تنفث الأشياء سمّها في دمي.
تنفث أفاعي الزمن كل العبث المعتّق.
تبثّه في أيامي.

لم يعد العبث فكرة أو فلسفة، ولم تعد اللاجدوى تَصادُفَ موقفٍ أو ارتطام فكرة بواقع، لم تعد حتى ارتطام مُمكنات ما بلا معقولٍ، ينبت من ارتطامهما معاً لاجدوى.

صارت... صارت اللاجدوى.. وجوداً غير مُجدٍ.

وكأن وجهي يستعيد ملامحَ كانت، كانت له، ومختبأة فيه يستعيدها بكل قسوتها بكل صلافتها.

***

كان نوار اللوز يطفو على سطح الصحن الواسع بعينها.. نوار اللوز من كرم اللوز الذي في أول تفتّحه.. وزهر الياسمين الذي كنتُ أو كنتِ تقطفينه ليوضع في ذات الصحن

في المقهى المقابل للباب الرئيسي لليرموك. كان نوار اللوز في إناء اللوز الذي صار النادل يحضره وبهِ قليلٌ من الماء دون أن نطلبه، مع القهوة، يضعه بيننا ويبتسم، تضعين نوار اللوز في الصحن فوق الماء، ينعكس زهر اللوز الرائق في عينيك، وكان واسيني الأعرج، كانت مصرع أحلام مريم الوديعة... وكان وقع أحذيته الخشنة.. ونوار لوزه.. هادئاً... ورائقاً بين فنجانَي قهوتنا، وكنا نحب.. نحب، ولا شيء إلا الهوى.. ولم أكن أعرف.. لم أكن....

ولم أكن على نذر ثلاث كاهنات اتفقن على قلبي... فهويت...

هوى قلبي ثملاً أمام أول كأس عرق، هويت... هويت سبعين عاماً... سبعين ذراعاً... ومن أول نخبٍ... ها انا اذكرهُ وأضحك.

ولستُ سوى قاضٍ نائبٍ.. مذ كان كامو... لست سوى عابر في هيجان الوجود..

وآه هو البرد.. ولا لذائذ للروح غيره... بعد أن مرّغَ كل شيء بالبذاءة.. وفقدت كل ما تحترم فيك...

هو البرد إذن أيها العمر.. لا شيء غيره.. لا شيء إلا به.. هو البرد.. وللشتاء مواعيدُ... ها هي تقترب أكثر منك.. تعرّيكَ من أي نبالة لأي وهم..

ها هي العتمة تحيط وتغلّف كل شيء.. وها هو العري.. يفضحك.. ويفتح المشهد من كل أطرافه.. ها دائرة ما جهنمية القدرة تلمّكَ وتلتمُ عليك.. لتهبكَ وحدكَ كل هذا العطاء.. عارياً من كل شيء..

ولعريكَ كل هذه العتمة.. ولها كل هذا البرد.. حتى تراك.. لا تنتبه لرجفات جسدك التي توحّد قلبك فيك حتى تراك فلن تراك بعد أن دخلت بكلّ هذه العتمة.

ولا تلتفت لعوراتك التي خبّأت وما خبأت.. ستصطكُّ أسنانك مع روحك، حين يندفعان لاحتضان البرد.. حين تغمضُ عينيك كي ترى ما لا يُرى...

وما من أغانٍ تتلفع بها.. فقد تقطعت كل خيوطك بالكون.. تقطعت كل صِلاتك بك.. لم تعد شيئاً يُرى فلا تفتح عينيك بالعتم.. لا تطرد البرد.. وليس ثمة ما يُرتدى... ليس ثمة من يرتدي.. لا شيء تسترهُ كل غشاوة الدنيا.. لقد فُضحتَ أمامك.. هل عَرفتك الآن؟ أغمض أكثر في العتمة.. كي تراك....

* * *

كل ما أشعلتُه مني لم يضئ عبث المكان.

في كناريٍّ هذا امرأةٌ في الخمسين، تفيقُ صباحاً وتجلسُ

على بعدِ طاولتينِ مني، تشربُ قهوتها وتتحدثُ بصمتٍ مسموع، خِلتها بدءاً تتحدثُ بهاتفٍ نقال، قليلاً لأكتشف أنها تتحدث إلى هاتفٍ في الوجود، هاتفٍ نقال أيضاً ينقلها من موضوعٍ إلى آخر ومن مدينةٍ إلى أخرى، من عالمٍ لآخر، ولقد مررها هاتفها على عدةِ مدن وعلى عدد غير قليل من الدول، نقلها إلى أكثر من امرأةٍ وأكثر من رجل... وكأنه كان يهتفُ، يهمسُ في روحها فتقول، بهدوءٍ، برويةٍ، كما صبح اللويبده في حديقة كناري رائقاً هادئاً وكسولاً.... تمشي وتتحدث، تصعد إلى غرفتها وتتحدث، تنزل من غرفتها وهي تتحدث، تجلسُ على طاولتها أو تقف أمام الباب الرئيسي وهي تتحدث، كأنها لا ترى أحداً ولا تسمع أحداً، إلا هاتفها الذي بداخلها...

لا أدري لماذا تذكرت الشيخ صالح، الذي كان يقال عنه في طفولتي إنه مجنون، كان جارنا ولم أرهُ طيلة حياتي يمارس أي فعلِ جنون، كان قليل الاهتمام بملابسه وبهيئته وهندامه، ولا أدري لماذا كانوا يَسِمونَه بالجنون، على الرغم من أنه لم يكن بالشكل يفرق كثيراً عن كل العقلاء في بداية الثمانينيات في المخيمات والاحياء الفقيرة من حيث الشكل، فقد كان يبالغ أحياناً في عدم اهتمامه، ولم يكن يفعل شيئاً سوى أن يتحدث بصمتٍ مسموع خصوصاً وهو يمشي، كان

يجوب كل جهات إربد من أقصاها إلى أقصاها من شمالها لجنوبها لشرقها لغربها، واربد كانت قريةً صغيرةً لا تغطيه مداهُ، لذا فقد كنتَ تجده أحياناً موغلاً في سهولها في كل الجهات، وكنا نراه أحياناً على حدود جرش ونحن نركب إحدى الحافلات إلى عمان، يمشي ويتحدثُ إلى نفسه، وعندما بدأتُ أكبُر صرتُ أسألُ عنه، قيل لي وقتها إنه كان ذكياً جداً وإنه أولِعَ بالكتب، وصار يقرأ أنواعاً معينةً منها، أفضت به إلى الجنون، أحببتُه وصرتُ أجالسُه وأتحدث إليه، لم أكن افهم وقتها معظم ما يقول، أذكر فقط أنه كان دائم الحديثِ عن الروح، وأذكرُ كم كان هادئاً ورائقاً ولم يكن ينفعلُ مطلقاً، مهما سألناه ومهما فتحنا معه من مواضيع مهما اختلفنا معه، وحتى حين كانت طفولاتنا تدفعنا للهو فنضحك منه وعليه، لم يكن يغضب لم يكن ينفعل، كان يسمعنا ويجيب على أسئلتنا ولا يلقي بالاً، ضحكنا أم قطعنا الحديث وذهبنا، وحتى حين كان بعض أصدقائي يشعر بالملل منه، ويدعونني لترك هذا المجنون لم يكن ينفعل، كان كأنه لا يسمع كل الإساءات التي تُلقى عليه. . . . لغتهُ لم تكن مفهومةً لدي، ومعظم كلماته كانت صعبةً وغريبةً على مسامعي، وكان يتنقلُ من فكرةٍ لأخرى دون أن أكن قادراً على اللحاق به، لكنني كنتُ أحس أنه يقول شيئاً جميلاً

ومهماً ويكشفُ سراً لكننا لم نكن نفهم عليه، وأن ما يراه الشيخ صالح لا يمكن لنا أن نراه، إحساس داخلي كان يقول لي إننا لسنا مؤهلين للوصول لما وصل، إحساس ضعيف، لكنه كان موجوداً داخلي..

ثم أخذتني الحياة، ذهبتُ إلى الجامعةِ وأخذتني التفاصيل....

هل تذكرين... عندما ذهبنا معاً لرؤيةِ أمي في بيتنا لأعرفكِ عليها، ثم جُلنا في أزقة المخيم والمناطق المتاخمة له، حين أخذتك في تلك الجولة لعوالم طفولتي وصباي ومراهقتي، حين كنا نقرأني معاً علنا نفهمُ عليّ، رأيتهُ يمشي مستعجلاً ويتحدث لنفسه بجملٍ سريعةٍ، أشرتُ اليه وأخبرتكِ قصته، ثم قلتُ لك وأنا أضحك: هذا أنا بعد ثلاثين عاماً....

غضبتِ وانزعجتِ.....

الآن فقط أفهمُ غضبكِ وانزعاجك....

وها انا ذا اتحدثُ مع نفسي مع هاتفي النقال، ولكن بصمتٍ منخفض، إذ لا أحد يسمعني الآن وأنا اتحدثُ عن نفسي وإليها وبصمتي المنخفض، المسألةُ إذن مسألة نسبية، فقط نسبة ارتفاع الصوت أو انخفاضه، وأنا صمتي منخفض وصمتهم عالٍ.. امرأةُ الهاتف النقال والشيخ صالح... ربما

احتاجُ قليلاً من الزمن، قليلاً من الضغط ليرتفع صمتي لدرجةٍ تمكن الآخر القريب من سماع هذا الصمت .

يا الله كم كان صوتها هادئاً، هادئاً على الرغم من بحةِ الحلق المحترق من السجائر والعمر. . .

كانت تشربُ قهوتها وتمسكُ سيجارتها بأناقةٍ وجمال، تتحدثُ بهدوء ولا تنظر باتجاه أحد، لا تزعجُ أحداً على الإطلاق، تتحدث بما فوق الصمتِ بقليل. . . بصمتٍ مرتفع.

وكناري هذا. . . المكان الوحيد في عمان الذي يقدر الصمت ويحترمه، بِعتقِهِ يعطيكَ صمتاً رائعاً، عالياً ومبجلاً. . . اللهم احفظ لي صمتهُ ولا تترك لأصواتهم أي اندلالٍ عليه.

أنا لم أطلب الغيبَ. . . لم أطرق أبواب معرفته. . . إنه الماضي فقط. . .

هل الماضي من مضى. . يمضي؟ بالتالي فهو السائر المستمر قدماً نحو التيه، هو الذاهب ولا أحد يدري إلى أين، أم أن الماضي من الحدةِ والحد. . ماضٍ كحد السيف، وربما هو السائر بتيهٍ وحدةٍ. .

لشدةِ حدته ذاك الماضي، ولقوةِ ذهابه ومُضيِّهِ، هيمن عليَّ، عندما رأيتُهُ أو رأيتُني في بعض مراحله، عندما استوقفتني الوثائق والمشاهدُ والصور، عدتُ اليها، عدتُ

حتى أعيشها، فليس انا هو ذاك الذي فيها، ذهبتُ اليها لأتأكد مني، هل أنا ذاك الذي..

دخلتُ المشهد، عِشتُهُ فاختلط الأمرُ عليّ، ذبحتني التفاصيل التي كنتُ ولم أكنها، لا أصدقها وأنا أراها على شاشةِ الحاسوب أمامي، ارتبكت، لم أكن قادراً على اتخاذِ أيِ قرار لهولِ صدمتي بي، فعلقتُ هناك.... ربما لأنني أخذتُ عقلي الحاضر وعدتُ به للماضي وحاولت فهمهُ به، فعقلي بقي كما هو ولم يطرأ عليه أي تغيير ولا أي معرفة ولا أي وعي، كانت الأشياء قد نشأت ونمت وكبرت وتكونت، دون أدنى التفاتةٍ من عقلي دون أي انتباه، فكيف سيفهمها حتى لو عاد اليها

يا سيدي.... إذا كانت اطلالةٌ صغيرةٌ على الماضي وحدهُ، اطلالةٌ لا تفضي حتى للفهم والمعرفةِ... معرفةٍ بلا فهمٍ تفعلُ بي كل هذا، فماذا ستفعلُ بي المعرفة الكلية والفهم الحقيقي، وماذا أقولُ للحاضر أو عنه، ماذا عن المستقبل، هل أقول اللهم أبعدني عن كل فهم.

لشدةِ رغبتي في معرفة وفهم ما حدث لي، أفسدتُ الحاضر... ها عامٌ كاملٌ يُنتهبُ من عمري ثم يقفُ أمامي معاتباً، ماذا فعلت بي؟ فأنا لا أذكر منه شيئاً، لقد كنتُ هناك في الماضي....

أستعيدُ الماضي من محاولةِ تحليله وفهمه، ولم أستطع، ها عامٌ كاملٌ سحبهُ الماضي نحوهُ، صار جزءاً منه دون أن أدري ماذا حصل لي حتى في عامي الأخير هذا، يقال إنني صرتُ عصبياً، دائم الشرود والهذيان، ويقال ويقال وسيقال، إلا أنني أعرفُ شيئاً واحداً، أعرفُ أنني صرتُ استحضر أشيائي السابقات وأتحدثُ معها، ضبطتني متلبساً في أكثر من حالةٍ كنتُ فيها وحدي أستعيدُ ماضيَّ وأحاورهُ، وبصمتٍ مرتفع، بصمتٍ مسموع، كنتُ أحادثُ هاتفي النقال، نفس الهاتف للسيدةِ الخمسينيةِ في كناري، ذات هاتف الشيخ صالح، وذاته صوت سيدي الشيخ، يتلبسني ويحتلّ صمتي ويلبس صوتي "أصلُ كل غفلةٍ ومعصية الرضا عن النفس. . . . ".

ها أنتِ أمامي بعد أن أوحشك سيدي الشيخ من الخلق. . . .

كنتُ رجوتهُ ألا يفعل. . لكنه أصرّ أن يحملني تلك الرسالة إليكِ. . هل تذكرينها. . عندما أخبركِ أنه أوحشني من الخلق. . وأنه سعيد بما فعلتِ. .بأن تركتني لهُ وحده. . إذ كنتُ حينها موزعاً بينكما. . وسألكِ فيها: أمثلهُ يُعاقبُ على مثل فِعلك. .

وسألكِ: رفقاً بكِ وتلطفاً. . .

وختم رسالته. . . ما رأيكِ أن أوحشَكِ أنتِ من الكون.

المسألة مسألة تقاطع أزمان، لكن هل سيظل شيء منكِ في داخلي..؟

لم أقل لكِ كم تشبهينها... كأنها أنت بعد أن أوحشك سيدي الشيخ من الخلق...

همساتها التي كأنها تلاوة عطر... صوتها وصمتُ كناري...

منذ يومين ولم تَكُف هذه المرأة عن كلامها الهامس، يبدو أنني سأضطر لمغادرة المكان، يا الله كم يجرحني صوتها.. أنا وهي وحدنا على جانبي الحديقة، أنا في ركنها الأيمن وهي على طاولتها في الركن الأيسر.. تشعلُ سيجارتها وتواصل الحديث الرائق، تحرك يديها بأناقٍ وجمال... وأنا أقدسُ الخصوصية لذا لا أقترب، أبقى بعيداً...

منذ أن فوجئتُ حين كنتُ أريدُ أن أفاجئ حبيبتي وهي تتحدثُ بالهاتف أيام "الألو" تلك الكابينات الصغيرة والحضارية والرائعة، التي وزعوها ذات مصادفة على كل شوارع المملكة... اقتربتُ منها بخفةٍ كي لا تنتبه عليّ، كي أفاجئها، ففوجئت بأنها تتحدث مع حبيبٍ لها فابتعدتُ، شعرت أنه ليس من حقي أن أسمع، شعرت أنه من النذالة أن أسمع على الرغم من كل الكل وكل التوق، على الرغم من كل النار التي كانت بقلبي، إنما ابتعدت ولم أسمع، كان

فلك أيام اليرموك، وللآن أرفض استراق السمع، أبتعد ولا أسمحُ لنفسي أن استمع..

البارحة مساء.. وصباح اليوم، قلتُ لها صباح الخير ولم تسمع، يبدو انها ليست هنا... أتراها من شيوخي الذين وصلوا.. لكن شيوخي.....

يعلو صوتها قليلاً وهي تستعيد أو تعيش حواراً ما.

- تفضّلي اشربي.

- اعطيني سيجاره.

تتحدث بدقة وتفاصيل وتقطعُ حكايا، تروي، تشرح، تشير وتحرك راحة كفها وتقلبها وسيجارتها لا تنطفىء

- I well go to sleep Becuze she is busy

قالتها وصعدت لغرفتها... هذا ما كان ينقصني.

أهرب بكَ وبآخر ما تبقى، هذا إذا كان ثمة ما تبقّى.. وإن لم يكن.. أهرب بك وحدك، أهرب وحدك بلا أشيائك كلها..

ها قد جاء شتاؤك الذي انتظرت... وها أنت تقف الآن أمام ما تدرك.. أمام حُسن اختيار المواقيت.. ولا تدركُ من ذا الذي يحسنها.. إنما تقف ولا تعترض، إنها روح المشيئة.. كنهها وجوهرها..

ومواعيدك كلها.. خُرِّبت مع ايقاع وتناغم حبات المطر المنهمر دائماً من السماء كرسائل إلهية لك وحدك، لهذا

دائماً كنت تهجسها.. وتنتظرها، تحسها قبل أن تصل.. تنتظرها وتتوقع كل مقولاتها لروحك، دائماً كل الرسائل كانت تصل.. وها قد اقتربت مواعيد روحك، وأنت وحدك تعرف أنك حاولت أن تغفر لك، حاولت انفتاحاً.. حاولت أن ترتقي، أن تكون ألقاً، حاولت أن تغيّر.. حاولت دفئك...

لكن برد العمر.. ما زال يصرّ على نفيٍ فيك لك.. ما زال يصرّ على نبذ فيك لك.. ما زال يصرّ عليك..

حتى الكلمات الممرورة، الحميمة: حتى وصفك لروحٍ تتشظى مشتتة في الهباء.. استعاروها لقتلك فيك.. تمردك، غضبك، حزنك، اختلافك، وجعك وتشظيك، تشتتك، رائحة كلماتك، نكهة الصدق، كلها "هُدرت في طريق...." طريقهم للغامض فيك..

غامض حدّ النفي، حد القتل، حد الإلغاء والاحلال.. زيّنوا أرواحهم بعذاباتك، زيّنوا جملهم بمفرداتك، زيّنوا هندامهم بإهمالك، ووجوههم بابتساماتك، واستعاروا حتى سمرتك الخفيفة، سمرتك الرحيمة.. وألقوا كلّ شيء في الطريق.. على قارعة المُهمَل.. ألقوا كل شيء وأهملوك.. وحمّلوك جريرة كل ما يجري لهم.. فاتهموك.. واعترفت، بان لا قاتل لك إلا أنت.. وأنهم كلهم براء من دمك، كانك قتلتك ووزعت دمك بين القبائل.. قبائلهم التي فيك..

ها أنا انثرُ روحي ومقولات سيدي كيفما اتفق، "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر".

من شاء فليسمع ومن شاء فليمضِ، لا شيء لي إلا سيدي، ليس مهماً تركوني ام تركتهم، فشيخي يعلم، يحاورني وأعيشهُ، صرتُ كلّي له، وكلماته صارت أغانيّ التي عاثت فيّ أرددها.

"حيثما حصلت ثغرةٌ، أو متكأً للمقاتل في ليلةٍ يصعُبُ القلبُ فيها".

- ولأنْ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خيرٌ لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه... فأي علمٍ لعالمٍ يرضى عن نفسه، وأي جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسه.

- ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

- معصيةٌ أورثت ذلاً وافتقاراً، خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً.

- متى ما أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.

- من اطلعَ على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية، كان اطلاعهُ فتنةً عليه وسبباً لجر الوبال إليه.

- ورود الفاقات أعياد المريدين.

- ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له.

ثم جاؤوا بدم كذب.. ليضعوه في شرايين جسدي وقلبي وأيامي..

دمٌ كذب.. يلقى على وجه أبي.. كي أعودَ بصيراً.. يُلقى على رأسي ووجهي وقلبي.. دمٌ كذب.

ألم يقل لك شيخك.. ألم تقل لنفسك، إنها دنيا ولا تليق بعلياء روحك.. لا تليق بأي علو.. هي دنيا.

أدركني يا سيدي.. أدعوك بقلب مفطور، أدعوك بوجه لا وجه فيه، أدعوك وكل شيء فيّ يذوب، يتبخر، أدعوك وأنا أتحول للاشيء.. أدركني، أدركني.. لم يعد عقلي يحتمل، لم يعد ذهني قادراً على العمل، وأنا لم أعد أنا.

أنا يُبكيني الجمال.. كان للجمال الأنثوي نسباً بقهري.. أنا يبكيني.. لمَ كان يبكيني، توقي وأنا القريب والقادر والسادر في غيّه، وأنا الحرّ المتحرر من كل القيود، لا لم يكن قيداً.. كان أنني.. قد استعرت من الغيب خيباته دون وعي، كان أنني ربطت روحي بوهم صنعته وحدي، كان أن خلقت لنفسي قيوداً بالسر عني وبالسرور بقدرتي على ضبط نفسي، تآمرت وتواطأت معي عليّ. فكأن روحي كانت تعرف فشل مؤامرتي ولا جدوى خطوتي، فتنقل كل القهر من زمن قادم، وتحضره.. تركّبه عليّ وتلبسني إياه فأكون متقداً للحد الأقصى ومضبرطاً قسراً فأصير بلا فعل، غير الإحساس المطلق بالقهر، فأبكي.

(آه يا روحي المتعبة... لا تطلبي المستحيل، بل استفلي حدود الممكن).

كأن الكون يتحالف ليقول لي لا بد من قليل من القسوة.. وأنا لأبي قلب عصفور، ورثه لي دون كل أبنائه.

كيف لي، وأنا أدرك سر هشاشة الأشياء، رحيق روح مبرراتها أن أقسو عليها، علمني أبي ألا أقسو إلا عليّ... ولا بد من وجود الله. علّمني كيف أبيت مظلوماً... علّمني سر العزة وخفر الفخر. كيف سأخلع عني طبعي، ومن سأصير إذن وهل أحترم او أحب؟ أنا شخصياً لن أحبني حينها وأنا لا أحب أن يحبني الأغبياء ولا الأغنياء.

دارت بي الدنيا.. واحتل روحي عبث كامن في كل شيء، عبث متمكن من تفاصيل وأنساق وانتظامات كل شيء، عبث لا انتظام له، إلا الشكل الفذّ للانتشار الحر، الذي لا يمكنك أن تتلمس شكلَ تجليه العابث والقادر والمموّه والمموّه لكل شيء، شكلاً لا يمكن أن تحسه أو تشعره إلا في لحظات العبث القاتم والقائم في الروح كسبب أوحد للوجود، لا يمكنك أن تحسه إلا بعد أن تصاب بكل ألق قتامته المميتة، إذ لا يمكنك أن تقترب منه بالقراءة ولا بالحوار ولا بالبحث، يمكنك أن تقول ما شئت وتقرأ ما شئت، وتجادل من شئت من الأحياء أو من الأموات، يمكنك أن تحفظ كل مقولات الآخرين الآسرة والجميلة، لكنك عندها ستكون قد ابتعدت عنه كثيراً... غادرت قتامته.

هل المرأة بمطلقها عبث مطلق، أعرف كم العبث، كم اللهو الكامن في كل شيء، لم أكن أسقطه على ما أرى، لم أتخيل أن كل الأشياء يمكن أن تتحالف ضدي مع خلايا العبث الكامن في القلب.

ها أنَّ الكمون والكمين.. أنَّ كل شيء متقَنٌ.. للحد الأقصى، كل شيء يمرُ بإتقان عجيب.. إتقان فذّ.

يا خيول الريح... يا رياح العدم... ألا هبّي عليّ وانتشيني وأنشيني... هزّي كل خلاياي... أسقطي منها كل ما لم يزل.. أزيليني عنّي، وانزعيني مني.

يا هباءً ساكناً فيّ منذ القدم... يا هباءً شاق وشقّ واشتاق.. يا هباءً فاق واستفاق..

أعماني حتى لم يعد لي غير آهٍ عتيقة كنت أعوذ أن يلوّنها العمر. يخفف حدة نبرتها، يلهيها عني قليلاً، يسرقها مني.

ولقد بلغت الأشياء منتهاها ولقد بلغت من الصبر عتياً، بلغت كل مبلغ فاستجمعكَ كما شئت أو ألا فانثركَ في الريح وليكن لكَ كل ما تمنيت وكل ما تشتهي.

كن رغائب مسرورة في السر...

كن صفاءً... كن الحقيقة...

أو فلتكن وهماً...

كن كما شاءت كل مشيئة... كن حضوراً أو غياباً.

وصل حادي عشر

"ما فات من عمرك لا عِوض له وما حصل لك منه لا قيمة له".

"يا ابن آدم، إنما أنت الأيام، فإذا ذهب يومك، ذهب بعضك".

أفقت من نومي الكوني، من كموني الجنيني، من الرحم والرحمة، من وثار الدفء الطفولي، من حضن أمي ومن عنعنات الصبا، على أولات القسوة والفقر، كان للقسوة ألف معنى وألف شكل، ما استجرّ تعاطفي معها جميعاً.. كيف يمكن أن تعيش المرأة إذن في هذا الشرق، إذا كانت روحي أنا تتفتت ألف مرة كل يوم، إذا كان القهر يقفز في وجهي في كل زمان ومكان، إذا كان يعشش في كل تفاصيل حياتنا، حتى صار جزءاً من القلب والنفس، قهر يخيم على كل شيء.. قهر في كل شيء.

لم يعد يحملني إلا الورق الأبيض، وما من صديق لي غير الكتابة.. وحدها ولأجلها أعيش كأني وجدت لأجلها

فقط، وكل ما مر بي، ليس إلا لتخمّر روحي خمرتها وتذوب.

وما من متعة في الوجود غير أن أحتسيني وحيداً على خمر وورق، أعيد اكتشافي، أعيد هدمي وبنائي، أعيد صياغة وهمي وحقيقتي كيفما شئت، في طريق غزالات الذهن التي تطارد روح الرواية.

أعيد اكتشاف الحياة.. سطوتها، رقتها وقسوتها، حنانها وحنينها وتوقَ وجودٍ للاموجود.

أكتبُ على الخمر ما يمحوهُ صحو الصباح، وأريقُ حماقاتي ما في كل النهارات.

أحمقان جميلان أنا والكتابة، عندما مالت عليّ ولانت، أخلصت لها، صدّقتها وصادقتها حتى أدمنّا بعضنا، صرتُ سرّ القول، تُحمّلني ما شاءت فأحمل وأحتمل، وأحَمّلها ما شئتُ فتطاوعني وتحتمل، حتى صرنا نختلط ببعضنا.

محض الوجود مصادفة عبقرية، والفعل فوضى الحقيقة، وإدراك العبث، أقصى الشقاء.

(وما من دموع أُداوي بها حضرات الهموم الجليلة...).

(وآخرُ مرحلةٍ في الغرام الوجوم).

شقوتُ... فهدأت رياح الكون... صرختُ فأصيب كل الكون بالصمم... هدأت فجنّ الكون شقاوة.. من ذا يماحكني، وماذا يريد أن يقول لي.

ليس لي إلا ما أتوهمه... منها.. ومن هذه الدنيا، أنا

صنوٌ وهمي، أنا هو، أنا المخلص له وحدهُ دون سواه، وقلبي "متبذخٌ فيه تبذخاً لا يُهتدى منه إلى رشد".

يلهبُ العاشقُ إلى وهمهِ، متبذخاً بالنعاس، وهي تنثني مراودةً حلمها بين صحوٍ وصحو، تنام على عشقها القدري السري الممنوع والممنوح بذات اللحظةِ والقهر.

كيف تستحيلُ كل جنوناتها ورغباتها وهباتها، كل ما زرع أو نما أو اعتاش من دمها وأعصابها، يستحيلُ رفضاً وصلابةً..

توقينِ من نارٍ ونار، توقينِ كنا واحترقنا، لم يبقِ منا إلا الغبار،

شقوتين موزعينِ في كل روحٍ وجسد

توق الرجولةِ إلى الروح التي ضاعت، وعمى الانوثة عن كل شيء سوى مؤقتها، عبادتها لذاتها، ايمانها المطلق بأنها ربة التفاصيل، ترتبها كيف ما شاءت رياح رغبتها، تميلها حيثُ تميل، وتُغَيِرُها حيثُ تُغير.

وانا عازفُ العود أثملني اللحن هذا المساء، بتّ واللحن يتراقص في شرايين دمي، غفوت واللحن يجتاز الحواجز مرهفاً شافاً وشفافاً، ناعماً بحدةٍ تثقف القلب وتخترق كل شيء، توغل في اختراقها لتلمس قدس الروح وسر القلب، عميقاً في مجاهيل ما لا ندرك مما نركّب من تعقيدات الأحاسيس وحساسيات النقاء، نِمتُ واللحن يترقرق صافياً كأجمل خمر، ناعماً حد القتل، بإيقاع يوقع كل شيء في

براثن الوعي والوهم، يتعاركان في كل ساحات القلب أو يتواطآن عليه، أيقظني اللحن عليّ، كأنه أنا، كأنني اللحن، استفقتُ واعياً أو واهماً، حاضراً أو غائباً، أنا أو أنا، إنما استفقتُ على اللحن يتصاعد غاوياً ومُغوياً.

أفقتُ ولم أفق: صحوتُ حالماً أو أنني لم أصحُ بعد، ما زلتُ تحت تأثير لعثمات اللحن وغواياته، ألقه وإخفاقاته، محاولاته لقول كل شيء دفعة واحدة، صدقِهِ ومناجاتِهِ، ربكتِهِ وإنجازاته، وصوله، جوابه وقراره..

ثمل اللحن صعوداً ونزولاً.. ملّ تراتب الخطوات الصغيرة على السلّم الموسيقي، تلك الخطوات.. تلك الدرجات الصغيرة كالعمر، أو هي درجات العمر بتصاعده أو تنازله نحو النهايات.

شعرتُ كأن العمر قد ثمل.. شعرتُ أن اللحن يقولني وحدي أو يقوله.

وكأن اللحن قد فتح باب الصدق على مصراعيه، لم أعد أرى أو أسمع أي شيء غير اللحن، كأنني وجدتُ ضالتي، وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه منذ قرون.. منذ أن تعلّمتُ الكلام، والآن فقط عرفت كم كان شاعري صادقاً حين قال "واللغة علبة للرياء".

أخذني اللحن، وصار يفتح في قلبي بوابات الوجد والطرق والوصول، صرتُ العارف والسالك والطارق والطريق، صرتُ أراقبُ إيقاع الأشياء، موسيقى الريح، أسمع

وقع إيقاع ضربات القلب المتداخل في الموسيقى القادمة من شكل الابتسامات والإخفاقات، إيقاع اللهفة، جنائزيات الخيبة ومزامير الموت والتوق، ألحان الرغبة، فوضى إيقاع البدايات، صعود ربكاتها، ونزولات الهوينة والهوان في إيقاعات ثنيات الخصر، ومكمّلات الابتسامات، حين يعزف رمش العين لحيظات الفرح ويرسمها على الوجه.. صار كل شيء لحناً والكون موسيقى.

تذكّرتُهن جميعاً، كيف اجتزنني وتجاوزنني ومضين إلى شيء لا أدريه، يبدو أنه أكثر إقناعاً وأكثر قدرة على ملئهن، تذكّرتُ كل شيء وما أعمتني إلا نون النسوة، نون النقطة والنهد.

ارتفع اللحن بداخلي وعلا، علا حتى عليّ، علا عليّ وخلاني، خلاني وحيداً مرمياً (على شارع العمر وحدي كصفصافةٍ متعبة) علا بي موج اللحن.. فصرتُ أرشفُ من ربعيتي علناً تماماً كملكٍ متوّج. قد كسر اللحنُ حدود الممالك والمهالك.

كان أن ترافق اللحن مع غباءِ كوني كان يعلو، ترافق مع موسيقى الصمت، موسيقى الطبيعة والخلق، مع ايقاع الشجر وهوي المطر ونسيم الريح ورائحة القدر.

كان أن الكون قد ثمل بالصمت، كانت موسيقى الصمت أكثر من عالية، كان الصدق باب النجاة بعد أن خرّبت اللغة كل شيء.

كان ثمة جسد عبقري يمر أمامي مواكباً ومصاحباً للحن، كأن حركتهُ جزءٌ من اللحن، كانت حركة الجسد الأنثوي عبقرية اللحن بصعوده وهويه وهواه... أنّ تُويجُ روحِ اللحنِ واختزلَ كلَّ درجاتِ سُلَّمِ اللحن والحلم العبقري الفذ للخلق... كان الوجود متجلياً برشاقة لحركة الأولى، كان كأنه أول انثناءٍ للنبذِ لأول أنثى تخرجُ تواً للوجود، وما من لغةٍ، ما من شيءٍ إلا أفسده الكلام، وكان جوع، وكان توق، كان ثمة حرية أولى... كأن نقاءً يغازل لغةً أخرى.

كان اللحن، لحن الانثناءات، يراودُ تلك اللغة، ويحسُ وهج الصدق، حرارته، فذاذة وحشيته، فكان عواءٌ طويلٌ يتابع عزف الجسد الأنثوي، يترنمُ مع إيقاعه، يتابعه بكل الألق والتجليات، صرتُ أعوي خلفها، أعوي وأطيل، أغزلُ وهم الروح ووعيها، وأنا أتابعُ ألق الانثناء الفذ، والانثناء موسيقى، وأموسقُ عوائي أنغمُ، انظُمُ، ألحنُ، أغني روحي عواءً، رائقاً وحزيناً،

(وسالت الخمرة والدم والدنيا على وجهي).

أقفلَ قلبي أبوابه عن كل شيء، لم يعد شيءٌ يقترب منه لذا قرر أن يأخذني بعيداً عن كل شيء، قرر أن يأخذني لحوار معه، قرر أن يُسمعني ويقول لي، وأنا قررت أن أروي له، قررت أن أغويه.

أخذته مرة وأجلسته أمامي، وصَمَتُّ له، فسَرَت فيه الأغاني وانسابت في الصمت حوله، فسرّني غناؤه وانتشيت

وبدأت أروي له سيرة الصمت، منذ أولات الخلق إلى ابتداءات الربكة، وأخبرته عن كل العصافير التي رحلت وأخبرته عن المغنين الذين لوّثوا روحي. أخبرته عن معلّقاتهم التي علقتها على جدرانه وكيف كنتُ أمزمز حروفها، وأتلذذها على خمر عندما كان يغادرني الرفاق إلى رفاقهم وهم حولي فيصعد جرس الحروف وحنينها الأعلى الذي لا ينتهي وحنيني إليّ.

وكأنك لا ترى، يمرون أمام عينيك وتسمع، تنفعل أحياناً، وتفعلُ حيناً، لكن كل ما يحدث لا يدخل داخلك، كأنه لا يعنيك، كأنك آخر، يأخذ منك قليل الاهتمام، كأنك في غربةٍ عن كل شيء، كأن فيك غربةً عنك، كأنك غيرك.. تعرفهُ قليلاً، وفيه من الأشياء ما يذكرك بك، كأنك...

أو كأن روحك غادرت قلبك، كأن قلبك غادرك.

لم تعد مندغماً، لم تعد ابناً لك، لم تعد لك ولم تصبح لأحد، كأنك عُزلت عنك ولم تندغم بأي شيء، كأن أشياءك غادرتك كلها، ولم تجد لها مكاناً آخر، حياةً أخرى، فظلت هائمة.

تنظر إليك، كأنك خارجك... خارجٌ مشتت، مشظى، تائه، لا يشكل بكل مجاميعه شيئاً تعرفه ولا يكتمل.

وكلك الآخر التائه فيك، القابع في قيعان وعيك المتعب، بمحاولاته المستمرة لأن يرى أو يعرف أي شيء، كلك هذا من ضباب ومن سراب، من غبش العمر والفكر،

من بقايا دخان حرائق أشعلها واشتعل بها وأطفأتها رياح القدر أو العبث، أطفأتها وبعثرت رمادها في سبع جهات الأرض.

تصحو لتمارس دوراً عبثياً، تصحو وتكرار الصحو استمرار لأصل القوانين العابثة بأصل الطبع المتمكن منك، تصحو كجزء من طبيعةٍ تحدث كل يوم، صحوك عبث، نومك عبث، ليلك، نهارك، عمرك الذي لا تعرفُ كيف تحبهُ وكيف تفنيه، زمنك بكل دورانه محضُ عبث

وتكابر، ترفض أن تضع هدفاً صغيراً أو كبيراً كي يلهيك عنك، تكابر في الدخول في لعبة العيش، ثم تكتشف أنها تُغافلك أحياناً وتسحب أنفاسك للهاث وراء أوهامها... تفيق لتشعر بشيءٍ من الرفض، رفضٌ لكل ما حولك، ثم تستجرّكَ رغبةٌ عتيقة، حركها ازديادُ نسبةُ هرمون ما أو نقصه، فتلهث لتمارس دورك الكلبي.....

وقبل أن يبدأ المشهد الأول... في مرحلة إعداد خشبة المسرح، تقف لتعترض، تفيق، تريد ولا تريد، ترفض أن تلعب دوراً في المشهد العبقري، وتبحثُ عن السؤال.

شيءٌ شفيف يغلفُ كل ما في القلب.

كأن كل ما يحدثُ فيك يصعُب أن يحشر في معنىً يُحشرُ في لغةٍ تُحشرُ في حروفٍ كي توصل ذلك المعنى المشوه والمشبوه، كأن ما يحدثُ في روحك يعرفُ ما يحدثُ

خارجها، فلا تستجيبُ لنداءات نفسها، ولا تنزلق الحروف على مساحات الورق الأبيض فيك.

على أولات نفسك، على أولات ما في نفسك تلتفت، وتنظرُ شيئاً يعتمل الآن فيك، يمنعك حنينٌ ما من قبول مغادرتها، ويُنبيك فشلٌ ما أنك قد تركتها وتغيرت... واقفاً في المنتصف... كأنك كُلُّكَ حزنٌ عليك وحزنٌ عليك.

كأنك حزن..

هل طأطأ غرورٌ فيك؟ أم أطلق الواقعُ لخيولٍ أعنتها، أم غابت قسوةٌ فيك، على نفسكَ سَلطّتها... خوفٌ مني وخوفٌ عليّ يسحقُ تبرعماتِ أولِ الرغبات.

هل يمكن لشكل الضعف أن يكون تعبيراً أعلى عن القوةِ، هل يمكن للحزن أن يكون الشكل الأعلى للتحقق أو الفرح؟...

هل أزيّنُ حزني؟ أم أبرّر هدوئي الرصين الذي يحوي داخلهُ كل شيطناتي؟.

أنا.. والعمر...

وأنا أُسرّبهُ نهراً نهراً، أفتحُ مسامَ النهايات كي ينزَّ منها كيفما اتفق، آخرُ العمرِ كامنٌ في أولاتٍ ما....

هذا الخسران المتواصل، كل هذ الفقد... من أين يبدأ؟

من أول ثقبٍ تُهرّبُ منه الذاكرة أشياءها، من كل جمالات الحالات التي مضت ولا يمكن لها أن تعود، منذ

ما بدأ كيس عمرنا بفقد حبيبات زمنه، منذ سقطنا في الزمن ورمتنا الأشياء في عباءات غيابه وغياهبه، أم منذ بدأنا منذ اللحظةِ الأولى؟... ما الذي نحاول جمعه في هذا العمر؟

كيف يمكننا أن نفهم الأشياء؟ ندرك حين تهدأ روحنا أننا لا نستطيع.

فقدنا قدرتنا على الانسياب الحياتي، وفقدت الأفكار قدرتها على إقناعِنا.

أول الخسارةِ.. أول الفكر.. أول الانحراف عن مسار التفاصيل.. ضِعنا في متاهات التفاصيل.. ربما أن الافتراضات البهية التي زرعوها في روحنا خربت علينا الحياة... لِم لا نجرب افتراضات غيرها، بالموضوعيةِ أو بوهمها أو بدونهما معاً، فلنضربِ النرد، لتترك الحياة تأخذنا معها لبطئها أو لسرعتها، لصخبها، لرقتها، لقسوتها، لرتابتها، لأي شيء فيها... لنمشِ قليلاً وراء البسيط، لنكن نحن البساطة، لنلعب قليلاً، فكل الأشياء لعبت بنا كيفما شاءت، لندخل في اللعبةِ إذن بكليتنا، لندخلها دون اشتراطات المعرفةِ أو بلا معرفةٍ مطلقاً، دون أن نسأل أنفسنا مسبقاً كيف سنخرج منها.

وصل ثاني عشر

ماذا يفعل الشعراء... يغرفون من الصمت ويُعلون الصوت

ماذا يفعل الحكماء... يسرقون من الصمت حكم الزمان

ماذا يفعل العقلاء... يُخفون في الصمت أوجاعهم ويوظفون الكلام

الصمتُ زينةُ كلِّ عاقلٍ، وبيتُ الحكمةِ، ومنجمُ الاسرار

ماذا لو أن كل كائنٍ في الكون أعلى صمتهُ قليلاً، وسمح للناس أن يسمعوا صمتهُ، أو يسمعوا حِوارهُ معهُ، ماذا سيقولون عنه، سَيكشفُ الصمتُ....

وماذا لو أنا نُفكرُ بصمتٍ مرتفع، أي أن يكون للتفكيرِ صوتٌ يُسمع... ولماذا كذا كان الكون، لماذا بقي التفكيرُ بلا صوتٍ، اليس تفكيرنا بنا يعكسُ حقيقتنا، ألسنا حين نفكرُ بيننا وبين انفسنا نكون نعكس حقيقة تفاعلنا مع الكون، اليس تفكيرنا الصامت بنا وبتفاعلنا مع الكون هو الانعكاس

الشفاف للكون على ذواتنا، اليس هو الفاعل الاول والصادق والبكر والحقيقي... ثم لماذا وضعت هذه المسافة بيننا، لماذا حكم على براءة تفاعلنا معنا مع الآخرين مع الكون بأن تختبئ بالصمت، بأن تتكون بالصمت، بأن تمارس صدقها المطلق وتعاملها الطبيعي بالصمت ثم تعبر عنه بالكلام، تُفلتره، تُخرج منه ما يتناغم مع مصالحها، مع حاضرها، مع الآخرين، مع ما لا أدريه... فتخفي وتظهر حسب رؤيتها في لحظتها تلك... من هنا بدأ الفصام...

- ألهذا تدعوني يا سيدي دائماً للصمت.
- هل بدأت تفهم الآن.
- ليس بعد، أحتاجُ قليلاً من الصمت.

في المسرح، في السينما، حين يحتدم الحوار بين شخصيتين، بين مشهدين، بين صورةٍ وصورة، بين كلمةٍ وصورة، حين تعجز الكلمة والصورة والشكل والجسد، لا تجد الصورة، الجسد، الحركة، المخرج، منقذاً له غير الصمت، لحظات الصمت هي التي تحملُ كل ما لا يحمل، تكونُ هنيهةً خلف ذروة، كَمكمَنٍ لانفجار شخصيةٍ، يتعبُ المخرج كي يوظف كل شيء تمهيداً لها، يقترب منها من فهمها، يوظفُ كل شيءٍ لخدمتها، لكن لا يجد في النهايةِ غير لحظةِ صمتٍ يتكىء عليها كي يبرر فعلها الآتي، فكثيراً ما علا الصمتُ وزيّنَ أكثر هذه المشاهد أحلاها وأجملها.

وفي الموسيقى يكونُ الصمتُ أرض البداية، قاعدة الانطلاق لعوالم أخرى، إذ لا ذهاب لها بدونه، ولا يمكن لها أن تنطلق إلا حين يسمحُ لها الصمت، يأخذها أو تأخذه، فلا بد أن يترافقا معاً...

وحين تكتظ الصور والجمل والمقولات والافكار، حين تَحتشدُ الأشياء في ذهنِ صانع اللحن ومبدعه، لا بد أن يُسلّم للصمتِ كل أدواته، آلاته، صوره، جمله، ومقولاته، ولكي يقول انتهيت، يتوجها بالصمت، إذ أنه بكل عبقريته بكل آلاتهِ وأصواتهِ وألحانه يحاور الصمت، ويحاول أن يقترب منه، ويبدع كلما حاول أن يقول الصمت أو يجعل الصمت يقول، يحاول أن يقول ما تعجز الكلمات عن قوله، ينطلق بموسيقاه من قاعدة حمل ما لا يستطيع حمله الكلام، وقول كل ما لا يستطيع اللون ولا الشكل أن يقوله، يحاول كل المبهمات، ويحاور بالصوتِ سر الاسرار، لذا فهو يتعاملُ بأناةٍ مع السيد الصمت، بخفةٍ، برقةٍ كأنه يرجوه أن يمرر شيئاً منه عبر صوتٍ ما، أي صوتٍ لأي آلةٍ تروق لهُ، فتراهُ يمهدُ له ويفرشُ، يجعل كل آلةٍ تغازلهُ وتفردُ له كل احتمالات القول، كل احتمالات الكون... ربما يقترب الصمتُ منها قليلاً، ربما يبتسم، يتردد، يتلعثم... ربما.

حتى منحة كناري، منحة التفرغ الابداعي التي منحتها

لنفسي لإكمال الرواية التي أعمل عليها منذ سنوات عبثٌ مطلق.

ألا تتعب أيها العصفور بسيقانك الرفيعة من القفز أو من الكذب.

ما أن كشفتَ عنّي أول غطاءٍ وغادرتَ، حتى سقط كلُّ شيء ودخلتُ في مرحلة الجنون الحقيقي، تهت،أنا الذي كنت أظن أن كل ما كان قبل الكشف كان يسبب لي تيهاً وجنوناً، أين كنت وأين صرت، كنتُ أظنني أفهم كل شيء وأي شيء، كنتُ أحلل وأركب وأنقد وأنتقد، كان لي وعيٌ اعتقدتهُ عميقاً وحقيقياً، كنت أعاشر الناس وأعيش معهم وأعتقد أنني أكثر من يفهمهم... ودائماً حين كنتُ أقول كنتَ تبتسم ولم أكن أدري لماذا... ها قد غادرتَ وغادرت ابتسامتك ولم تبقِ لي غير كشفك ذاك، في آخر مرةٍ رجوتك فيها

- أرجوك أنظُمْ لي عقد المباهجِ، فُكَّ معي أزرار أسرار الوجود، إذ لم يعد يسعدني شيء، دخلتُ في مرحلة اكتئابٍ شديد ومزمن، دخلتُ مرحلة التيه والجنون وربما المرض النفسي

- أنت بعدُ تلعب، لم تدخل ولم تخرج.

- أتقولُ عني ذاك، أنظر حولك، أشعر أحياناً انني أنا الوحيد الذي يفكر ويتأمل، يقف ويراقب نفسهُ ويسأل الأشياء عنهُ وعنها، ويحاول أن يفهم.

- كلهم حولك كذلك، لكنهم لا يكشفون ما بدواخلهم كما تفعل، لذلك يصلون أسرع منك وأعمق ويجدون حلولهم، أخبرتك انّ الصمت هو اللغة الحقيقية وانت لا تستطيع الصمت.

- أنا اكثرُ من يفعل، أكثر من يصمت ويستمع للآخرين.

- حين تصمت استمع لصمتك انت.

- أنا أكثر من يحاورني ويفكرُ بالأشياء.

- كل ما تصمت وتستمع اليه هو تشورهم، ما يرغبون بايصاله لك، وهذا مطلقاً ليس حقيقتهم، هم يصمتون عما يُصمتُ عنه ويلقون إليك التفاهات، وكلُّ ما تسمع منهم هو كذبٌ وادعاءٌ وتفاهات، تحدث اليهم مثلهم، وابقِ جمالات الأشياء ورحيق روحك لك وحدك.

- لم اخترتني دون سائر الناس.

- لأنك تشبهني، لانك مثلي ولساني الذي سيوصل كلامي، لأنك منقذي من العدم ومُتنفسي ووجودي.

- إذن اكشف لي عن الأشياء.

- لست جاهزاً لذاك بعد.

- لماذا؟

- لأنك بعدُ لا تحتمل.

- بل انا أكثرُ من يحتمل.

- أخافُ عليك.

- من غلبة الهوى عليّ؟

- غلبك هواك وانتهى امرك، لكن شيئاً فيك لم يمسسهُ هواك هو الذي سواك، وهو من أحضرني إليك.

- جئت نعم لكنك لا تريد ان تكشف لي شيئاً ولا حتى ماضي.

- بل أنا أريدُ أكثر منك، وأريدُ ان آخذكَ هناك، فقط أنا حريصٌ عليك أكثر منك.

- لماذا تخافُ عليَّ ولِمَ كل هذا الحرص، جربني وإذا لم أحتمل امنع اسرارك عني.

- هي ليست اسراري، وهي ليست أسراراً ايضاً هي أشياء حدثت وانتهى أمرها، ولا تشكل أي نوعٍ من الخطر على أي أحدٍ سواك.

- إذن اكشفها لي، او اكشف لي بعضها.

- لن تحتمل.

- سأحتمل أعاهدك وأقسمُ لك.

- حسناً، لكن بشرط أن اكشفها لك وأغيب، ومهما دعوتني لن أستجيب.

- موافق.

- إنها مغامرة، وأنا أريدُ لك أن تصل.

- اذا كان ماضٍ صغير أو جزء من ماضٍ سيجعلني لا أحتمل، كيف ستكشفُ عن غيره وسواه.

- حسناً ساجرب وأعطيك كشفاً أول، كشفاً واحداً وبسيطاً ثم أتركك واغيب، سابقى أسمعك وأراك لكنني لن اعود حتى اطمئن أنك قد احتملتَ أول كشف

- اتفقنا.

- ذاك الحاسوب هناك.

أشار اليه وغاب، وكأنه أزال عن عيني غشاواتٍ كثيرة، او كأنه منحني وسرّب لي شذراتٍ من قدراتٍ صغيرة، لا أدري كيف صارت اصابعي تتحركُ على لوحة المفاتيح، وتتنقلُ من أيقونةٍ لأيقونة لملفٍ لمساحةٍ لمكان، وكلما فتحتُ باباً أفضى بي لمئة باب خلف كل منها عالمٌ قائمٌ بذاته، عالم كامل من التفاصيل، تفاصيل من. تفاصيلي أنا، ولم أنتبه.. . اطلعتُ على الكثير وأضعتُ الاكثر، إذ لم أكن أعرفُ كيف أتنقلُ بين العوالم.. . ثلاثةَ أيام وأنا متسمرٌ أمام الحاسوب، لا أقوم من أمامه إلا للذهاب للحمام أو لاحتساء القهوة أو الخمر، ورأيتني كلي هناك.

ذهبتُ اليه مسرنماً ولا ادري عمّا أبحثُ فيه ولا كيف أبحث ولا أدري أيضاً ما الذي فيه، صارت اصابعي تتحرك بشكلٍ لاإرادي وصارت نوافذ ألامسِ تنفتحُ أمامي، رأيتُني رأي العين كيف كنت، رأيتُ من نا ورأيتُ أنني لا

شيء... رأيتُ حياتي كيف كانت وإلى أين تسير، كيف حدث كل هذا معي، لم اكن انا، كيف حدث لي ولم أكن هناك... سرت رعشةٌ في جسدي ثم تحولت لرجفةٍ ولتشنجاتٍ متقطعةٍ، تأتي وتذهب، تهدأ وتصعد، تبدأ من معدتي ثم تنتقل لكل أطراف جسدي مروراً بظهري ورقبتي، صرتُ أعرق وأرتجف، ضاق صدري ولم أعد أستطيع التنفس، صرتُ أفتح فمي لأتنفس فلا أجد الهواء، كنت ابكي، أنشُجُ، ويعلو نحيبي حيناً، وارفع بصري للسماء أناجي، أشكو حالي... ثلاثة أيام وأنا على هذه الحال، ابكي وارتجف واختنق، أشعرُ في كل لحظةٍ أنني سأموت الآن، فلم أكن أحتمل، لم أنم أياماً ثلاثة ولم أكن أستطيع تناول أي طعام، إذ كنتُ أشربُ الماء بصعوبةٍ عندما تهدأ نوبات التشنج والارتجاف التي كانت تشبه نوبات الصرع، والتي كانت شبه متصلة، كنت أحاول أحياناً أن ألملمني وأهَدّئ نفسي فأعدها بالقهوة التي أعدُّها لها، إذ لم تكن نفسي تطلبُ غيرها والخمر... لقرارٍ مسبقٍ ولحكم مشيئةٍ لم أمت، إذ كل الأشياء كانت تسحبني للفناء، شيء ما لا أدريه هو الذي أبقاني في الوجود، علت مناجاتي في الليل، يا الله، يا رب، اللهم لا تمتني قبل أن افهم، لا أريدُ من الكون غير أن أفهم..

كانت حياتي مكتوبةً هناك، كيف كُتبت، وهل أنا كذلك

حقاً، كانت حياتي كلها مكتوبة ومطرزةً بالصور، آنا والكون كل الكون، كيف حدث كل ذلك، وأين كنت، والله ما كنت، أحلفُ وانا أراني عبر شاشة الحاسوب والله ليس أنا، أنا لم أكن هناك، هذا ليس أنا، أنا لم أفعل وأنا لا استحق، هل أنا ذاك الذي، آأنا افعلُ ذلك، أيعقل أن أكون، هل هكذا هي الحياة.

أي غطاءٍ جهنميٍ كان يغطي وجهي فلم أكن أرى... ألي وحدي كل هذا الكشف.. يا سيدي أشعرُ أنك لن تتركني ولن أنجو مني، منك ومن كشفك هذا.

- أعرفت لماذا اخترتك أنت دون سائر الناس.

بذرةُ الشك فيك، ثقلك وصعوبةُ انجرارك، مراقبتك لك، احتراقك وأنت تراك تحترق وتواصلُ احتراقك بالكون، إصرارك عليك، لم تبع ولم تشترِ فما خُلقتَ تاجراً، كل مراصدك ومجساتك سَلطها عليك.

(تشوُّفكَ لما بطُنَ فيكَ من العيوب، خيرٌ من تشوُّفُكَ لما حُجِبَ عنك من الغيوب).

عقابك لنفسك إن زلّت، نفيك لك ولكل رغائب السر والسرور، لم تُهن نفسك ولم تقدسها، لأنك العابدُ الزاهدُ دون طقوس.

على الحافة..

وأحاول أن أمسِكَ قبساً من كل ما حولي.. من كل ما فيّ

قَبسٌ من كل ما يُومي ويهرُب..
قبسٌ من كل وميض، من كل فيض..
قبسٌ من كل ما تثيرهُ الأشياءُ فيّ...
قَبَسٌ من عمر الهنيهةِ تلك...
حين بسطت امرأةٌ راحتها لتوقف هميَّ روحي الأخير.
قبسٌ فاض حين التقت أعيُنُنا..
فغام المعنى وضاع المبنى..
فانفرجت راحتاها لتمسح دمعةً سالت..
فهويت...

منتديات الكوكب العاشر

المحتويات

وصل أول 9

وصل ثانٍ 15

وصل ثالث 24

وصل رابع 32

وصل خامس 48

وصل سادس 54

وصل سابع 63

وصل ثامن 93

وصل تاسع 116

وصل عاشر 146

وصل حادي عشر 162

وصل ثاني عشر 172

الأنوثة... غموض روح الرجولة...

والرجولة قسرٌ للإنسانية، قتل للطفولة بإغرائها بلعب دورٍ مبهم وقاسي. الرجولة بساطة الوضوح، التي تسير خلف كل ما يحدث على السطح، كل الصواب الموزع لاستهلاك الظاهر.

وهم الأهمية، عناوين اليومي، الخطوط العريضة لكل شيء، ارتداء مستمر لشكل القوة، الإقامة الدائمة في الظاهر، التحقق الكامل والامتلاء بالبسيط وبوهم القوة.

والرجولة محضُ الجفاف، والعطش المطلق للحنان، خشونة الشكل، والعمى عن التفاصيل، تنطحٌ مستعجلٌ، إنحيازٌ عبثيٌ، رعبٌ وجوديٌ وكلي، فإما أن تكون رجلا أو لا تكون، انسياق بلا وعي للعب دورٍ لا يُطلب.

محض واهم يسابق نفسه للوصول لآخر الكذبة التي لا تنكشف أمام أحد.

فراغٌ قادرٌ على استيعاب كل ما يُلقى فيه.

والرجولة مفهوم يُستحضر في أوقات معينة لتمرير حماقةٍ ما تواجه بمعارضةٍ إنسانية.

والرجولةُ صحراءٌ من العطش والاحتياج، وذراعان يلمان أطراف الكون توقا لأصغر برعم وهمٍ قد يفضي للأنوثة، خلق متعطش يبتلعٌ كل شيء ولا يرتوي.

فقدٌ مطلق، شكلٌ يبحث عن روحه التي ضاعت، وهو يعرف أنها اختبأت في مكانٍ ما من الأنوثة، لذا فما زالت كل أشيائه تهفو اليها، وهي وحدها، دون جبابرة الأرض جميعاً، تقوده أنى شاءت، بلا جهد منها، شيء بداخلة ينقاد ويقوده بسلام غريب وبلا أدنى اعتراضٍ خلفها.

هل يتماهى ذلك الشيء الذي يفوده مع شيء من الأنوثة عندما يقترب منها؟!

عبد السلام صالح من مواليد مخيم الفارعه ـ نابلس.

صدر له: المحظيه (روايه)، دار أزمنه للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن 1995.

أرواح بريه (روايه)، دار أزمنه للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن 1999.

حائز على جائزة أفضل تأليف مسرحي محلي في مهرجان المسرح الأردني الرابع للمحترفين 1996.

ISBN 978-9953-71-445-5
9 789953 714455
بدعم من وزارة الثقافة
٢٠٠٧